أيامُ الكرامةِ

obeikan.com

أيام الكرمة
رواية
مارينا سوريال
الإسكندرية : حسناء للنشر
الطبعة الأولى : ٢٠١٧
ISBN 978 -977-6535-75-6
رقم الإيداع : ٢٠٠١٠ / ٢٠١٧
ديوى : ٨١٣
١٨٤ ص ، ٢٠ سم

{ جميع الحقوق محفوظة © }

الإسكندرية ، ج . م . ع
٠١٠١٨٨٣١٣٦١
٠٣/ ٥٧٦٥٧٧٧
المدير العام : عادل أبو الأنوار

المراجعة اللغوية : عادل أبو الأنوار
الإخراج الفنى : أمير مصطفى

obeikan.com

أيامُ الكرامةِ

روايةَ

مارينا سوريال

حسناء للنشر

obeikan.com

obeikan.com

١

استيقظت كعادتها قبل أهل البيت، فتحت الباب الخشبي وخرجت باتجاه الحديقة الخلفية الواسعة، باعدت خطواتها عن الأجساد التي أخذت تستيقظ بدورها، وهي في طريقها لمحت الفتاة الصغيرة التي اشتريَتْ للبيت بالأمس فقط وهي تخرج من الباب الخلفي باتجاه غرف أسياد البيت، تابعت طريقها باتجاه الحديقة الواسعة، منذ زمن حينما حُملت إلى هنا فتاة صغيرة حملها رجل ضخم الجثمان وضعها عن قدمي السيدة وهي لاتزال تفرك عينيها من أثر نوم الأمس الذي نامت فيه لحظات قليلة بعد أن استمعت لبقية الفتيات يتحدثن عن أسياد سيذهبن إليهم، كانت تبكي، تلك الشوارع الواسعة التي تعج بالبشر بألوانهم المختلفة.. لم ترها.. أو تعرفهم من قبل، منذ أيام قليلة كانت مع أمها تحتضنها في ذلك القارب الصغير تهدهدها حتى لا تخاف من الاهتزاز الذي يحدث من تحتها ويخيفها حتى أيقظهم صوت أجش ورأت الجميع يتحرك ويهبط من حولها، كانت تتذكر وجه أمها جاهدة ولاتزال تحمل لها ذكرى تلك المرات التي حاولت فيها تعليمها اسم مدينتها وفشلت في تلفظها حتى لفظتها ذاكرتها بأسرها، منذ أن بيعت لهذا المنزل وهى أصغر الفتيات نظر لها السيد طويلا وحملها أن تمكث في حديقته الخاصة، مع الوقت تعلمت عن كل زهرة وعلمت كيف تسقيها ومتى، كانت أزهارها كأطفالها الصغار مسئولة عنهم، لم تكن تخاف

من عقاب يأتي على ظهرها من سيد البيت إذا هي أخطأت ولكنها كانت تهتم لحال تلك الأوراق الصغيرة إذا هي أهملت أو نسيت أيًا منها، ترش المياه على أزهارها، تراقب تفتح أوراقها.. تحب سماع صوت فراشتها، لمحت السيد الشاب يخرج من البوابات، كانت تسمع همسات السيدة، لم يعد السيد الشاب مثلما كان من قبل، منذ أن عاد وهو لايخرج باتجاه المعبد مع والده، ذلك المعبد الذي بُني وسط الغوغاء كما قيل من السيد، كان يكره منظر الناس المحيطين بالمعبد، رأت "ميترياديس" يسرع بإغلاق البوابات بعد أن عبرت عربة سيده "بومبي" من الأسوار ويغلقها بإحكام، ففي المرة الماضية تجمع عدد ليس بالقليل أمام البوابة طلبًا لرؤية السيد الكبير، كانت تسمع صرخاتهم محاولة العبور، إلا أن السيد أمر عبيد البيت بالخروج لهم، كانوا يطالبونه بخفض الجزية التي يدفعونها لكنهم دفعوا بعيدًا عن البيت، سمعت السيد يقول كيف يجرؤ على اقتحام بيتي؟.. بعد أن توسلوا لنا أن نأتي لهم ونساعدهم الآن يحاصرون منازلنا؟ غوغاء...

أنهت أعمال الحديقة واتجهت لأعمال تنظيف بيت سيدها الواسع، كانت تستمع لصوت تعليمات سيدتها وتنفذها بدقة متناهية لا تريد أن تتحمل العقاب، في ذلك اليوم سمعت صراخ العامة من الخارج، كان العبيد الأشداء يحيطون بالبوابة الحديدة من كل جانب تحسبًا لمحاولة اقتحام الغوغاء كما دعاهم السيد للبيت، كانت تسمعه يتمتم غاضبًا: كل هذا من جراء التروس الذهبية التي أراد وضعها على معبدهم، ذلك الرجل عنيد

ولكن الإمبراطور ربما لن يقبل بذلك وربما عده إهانة له، التفتت له السيدة: تلك التروس لا يمكنها أن تهين الإمبراطور ولكن بومبي في الخارج ولدى الحاكم تعلم أنه لا يحب الغوغاء، اقترب منها محاولا تهدئتها: اطمئني.. قريبًا سأرسله لقيصرية.. صوت سخط الغيور يشتد وأنا أُرسِلت إلى هنا لأمنع حدوث تسلط الغيور على أبناء لونه.. لن أدع بومبي يقف في طريق مصالحنا..

استمرت الصرخات، وقفت أنا والفتيات من خلف النوافذ نراقب اندلاع النيران منذ أن استيقظت في تلك البلدة الصغيرة وتركت يد أمي لم أرَ حريقًا هائلا مثل اليوم، ولكننا لم نكن بمفردنا، وقفت السيدة من خلف النوافذ تلمح اللهيب الذي يتصاعد من المدينة وتستمع إلى صوت الصرخات التي تصلنا إلى هناك، منذ قليل سُمع صوت طرق شديد البأس على البوابة، كان صوت أحدهم ينادي على السيد فأمر بفتح البوابات رغم صرخات السيدة من اقتحام الغوغاء لكنه زجرها بنظراته فتوقف صوتها، كانت مثلنا تراقب الجرحى المحمولين على أعناق زملائهم والسيد يفتح لهم البوابات الخلفية للعبور والاستراحة، كان السيد فيما مضى- طبيبًا تعلّم فنون الطب في الإسكندرية قبل أن يأمره الإمبراطور أن يأتي إلى هنا.. كانت أورشليم تشتعل، مات كثيرون.. استمرت الضجة حتى الصباح ولكن قبل شروق الشمس حمل الخدم السيد الصغير بومبي من البوابات الخلفية حيث كان مصابًا في رأسه فأمر السيد الكبير بحمله ووضعه في

فراشه بالأعلى وسهر على تضميد جرحه.. وقفت أنا و"تيبي" صديقتي بجوار السيدة.. حملناها، كادت أن تسقط وهي ترى دماء السيد الصغير على ضمادته... كانت أصوات الجنود الآن أقوى وهم يسيرون في الشوارع وأخمدوا صوت صرخات الناس، قالت لي تيبي إنها رأت الدماء تكسو الشوارع أمام البوابات، هكذا أخبرها يوساف حبيبها السري، كانت الوحيدة التي تعلم، حاولت أن أثنيها، السيدة لن تتسامح إذا علمت، لم يكن مسموحًا لنا بالحب مثل الأحرار.....

صعدتُ ناحية غرفة السيدة الصغيرة حيث كانت مهمتي رعاية الصغيرة، كانت ابنة السيدة الصغرى ملاكًا لا تبدو كواحدة من أسرة سيدي، كنا نختلس الأوقات لنهبط صوب الحديقة الخلفية، كانت سيدتي الصغرى بارعة في رعاية الزهور، كانت تتطلع دومًا صوب البوابات الخارجية وتنظر بعيدًا، يومًا ما سألتني من أين أتيت؟ أخبرتها؛ كنت في السابعة عندما تم بيعي ولا أعلم لي وطنًا سوى بيت سيدي، كنت بعمر سيدتي الصغيرة، لذلك كانت تعلمني الأحرف في الخفاء، لم يكن مسموحًا لي بالتعلم، كان "ميترايديس" يشير لي بإشارة لا يفهمها سوانا عندما تمر السيدة الكبرى صوب الحديقة حتى لا تراني برفقة السيدة الصغرى في الدرس، ربما تحكم عليه بالجلد مثلما قال لي، أخبرني من قبل أنه تعرض للجلد ولكن بعد ما حدث من عبيد روما لم يعد السيد يلجأ لمثل تلك العقوبات، ولكنه كان يمنع الطعام عن المخطئ، ميترايديس العبد العجوز منذ سنوات وهو يحيطني

برعايته، لم أعرف لي أبًا، فكان ميترايديس عوضًا لي، عيناه تراقبانني كلما ذهبت إلى موقع برفقة السيدة. سمعت من تبيى أن ليوساف عبدًا كان يعلمه القراءة والكتابة قبل أن يلتحق بمعبدهم للتعلم، كانت تعمل وهي شاردة تنتهز الفرصة لتتلصص على المارة من حول السور علها تشاهده يعود، كان خارج أورشليم في رحلة مع والده، كانا صانعَي خيام، مضت ثلاثة أشهر على مفارقته، وعدها بالعودة سريعًا، كانت تعلم أنه سيعود قريبًا ليباشر تعليمه في معبدهم، فى ليلة أمس تنهدت في ارتياح، قالت إنها سعيدة.. شكرت الآلهة لأنه لم يوجد في الأيام الماضية داخل أورشليم، تعلم ربما كان مع المندفعين، هي تعلم غيرته الشديدة وتحبها، لذا تلوذ بالصمت أمامه ولا تتحدث عن خوفها عليه من ذلك المعبد، سمعت من السيد أخبار من تم القبض عليهم وسوف تنفذ فيهم العقوبات القاسية بحسب القانون الرومانى. كان يعد نفسه لدراسة الخطابة في جماعته وعائلته كانت بحاجة إليه، كان يتعلم على يد غمالائيل.. أخبرتنى أنه يتعلم عن أجدادنا قوانين وحكايات أجدادنا ويقصها عليها، كانت في المساء تهمس لي بما يخبرها، كنت أعلم مالزيوس.. ذهبت إليه مع سيدتي الصغيرة وقت إقامة سيدنا الحاكم داخل المعبد، وقدمنا البخور وسرتُ داخل أروقة المعبد الفسيحة.. بخلاف تلك الزيارة كنت أعلم ما يتداوله العبيد من الحكايات، فلم يكن الأسياد يهتمون، مالنا والتعليم.. عاد يوساف بعد أن هدأت الهجمات التي شنت من بعض الغوغاء كما قال عنهم السيد وأهل يوساف، لكنه عاد ليودعها، قالت إنه انضم لركب تلاميذ المعلم، هلل لتعلم القوانين والشريعة الخاصة بهم وأنه سيتبعه في رحلة وربما يذهب إلى

الجبال، رأيت دموع تيبي التي تعلم أنه لا يحق لها الحب لا لدى الأسياد ولا بشريعة يوساف، كان يقول لها إن ما يفعلانه خاطئ، وإذا علم أحد من أهله سيطبق عليه العقاب وربما يرجم.. كانت تعلم أنها لن تأخذ أكثر من حبه، أما الآن فسيذهب إلى الجبال خلف سيده ومعلمه.. قالت ربما لن يعود.. أجبتها همسًا: هكذا قال.. أجابت: سمعتهم في الأسواق يتحدثون عندما أرسلتنى السيدة مع الغلمان لإحضار الأقمشة التي وصلت إليها مع السفينة القادمة من الإسكندرية.. جماعة منهم تهرب من الحاكم وتعيش وسط الجبال.. همستْ بغيظ أكثر: ويكرهون النساء، يقولون نجسات ولا يحق لهن الاقتراب أو التفكير فيها.. ربما لن يعود.. أردت أن أطمئنها، قلت لها: لو كان كذلك لأخبرك، سافر من قبل وعاد مثلما وعدك، لا تنسي أنه يخالف شريعته من أجلك.. أجابت في غيظ: لِمَ تكره آلهتهم الحب؟ قلت لها: لست أدري أنهم يكرهون الحب، ولكنهم يكرهوننا، نحن لسنا منهم.. أنسيت؟ لاتقترب منا سيدات منهن، يتجنبن الحديث معنا ولو في السوق.. قالت: لأننا عبيد.. أجبتها: ربما.. أغمضت جفوني لأنهي الحديث، اقترب ضياء الصباح وعليه الاستيقاظ مبكرًا، لدينا منذ الصباح أعمال الحديقة وسوف نرسل للمزرعة، لقد أمرتنا السيدة أن نذهب للمزرعة ونبدأ العمل بها.. في المزرعة كان علينا الاستيقاظ فجرًا والعمل في الأرض حتى المساء.. كان ميترايديس يراقبني في المزرعة من بعيد، لقد اعتدت على نظراته وحمايته لي.. كان موسم الحصاد فأرسل الأسياد عبيدهم لجني محصول الكرمة من مزارعهم، كنا نعمل طوال النهار وفى المساء نستريح ونأكل الخل والفريك مثل باقي فقراء تلك الأرض، حتى سمعت صرخات

ميترياديس، كان في الجانب الآخر مع الرجال وبقيت مع الفتيات نأكل طعامنا حتى خرجت إحدى الفتيات لاستطلاع الأمر.. لم أرَ سيدي الصغير بومبي يأمر بعقاب كهذا من قبل، سمعت صرخات ميترياديس المعلق على جذع الشجرة ويتلقى الجلد عاريًا أمامنا.. صرخات ولكنها صرخات غضب، كنت قد سمعت همسًا حوله من قبل، يقولون إنه شارك في ثورة العبيد بروما قبل أن يأتي لخدمة سيدي، ولكن ميترياديس لا يتحدث كثيرًا، شعرت بالألم لرؤيته يُجلد، كان بالنسبة لي أبًا.. كرهت سيدي بومبي منذ تلك اللحظة، أعترف أنني أحببته، كنت أعلم أنني مجرد عبدة ولكني كنت أغار عندما يستدعي إحدى الفتيات الأخريات وكأنه لايراني من وسط مخدوماته، لكنني لم أغفر له أبدًا في قلبي جلده لأبي...

٢

تحمل ميترايديس الألم ولكنه لم يشعر بالألم هكذا في حياته سوى رؤيته تيودورا وهي واقفة تشاهده يُجلد من بعيد، كان يصرخ غضبا، عذرًا يا ابنتي الصغيرة.. أشفق على رؤيتها منذ أن قرر الرحيل هربًا من وجه أسياد روما، وحمل زوجته وابنته معه داخل تلك السفينة، تمنى أن يحصل في بلاد بعيدًا عن روما على العيش في سلام، كان من العبيد الذين سُمح لهم بعد القيام بثورات بنوال حقوقهم في الحب والزواج مع عبدات مثلهم، فاختار "ماري" تلك الأرمينية الممتلئة مكتظة الشفاه، أحبها منذ أن شاهدها تدخل خدمة سيده القديم للمرة الأولى بعد فتاة في الرابعة عشرة من عمرها، وعندما أتت الثورة طلبها للزواج برغم أنها كانت محظية سيده، لكنه وافق على تزويجها خاصةً وأنها لم تنجب له أبناء غير شرعيين، ولكن موجة أخرى من الثورة لاحت على أبواب روما.. فانتهز فرصة الفوضى وحملها وابنتها الصغيرة على تلك السفينة، لم يكن يسمع بأورشليم من قبل ولكنه أراد مدينة بعيدة عن أعين أسياده، هناك حيث ينعم بالهدوء ويعيش في سكينة مع أسرته الصغيرة.. ولكنه لم يعلم بمن ينتظرهم على الميناء، وعدوهم بالحرية فوجد نفسه ضمن العبيد الجدد المرسلين لحاشية حاكم فلسطين.. لكن السيد الجديد اختار ماري عند عودته إلى روما، لم يفلح هنا القيام بثورة للعبيد فقد كانوا الأضعف، قُتلت رؤوس الفتنة سريعا.. رحلت ماري على متن سفينة أخرى وأُجبر هو على

البقاء.. كان يشاهد ابنته من بعيد والتي بيعت لسيد جديد صغيرة.. تكبر، لكنه فضل أن يبعد عنها أعينهم، فقد ظل تاريخه القديم يطارده ويحذر منه الأسياد.. أغمض عينيه عندما رأى دموعها وهي تنهمر وصوت السياط يرتفع في الهواء.

لمح العبيد نظرات السيد الكبير لبومبي حينما أتى لغرف نوم العبيد المخصصة جوار اسطبل الخيول، كان ملقىً على وجهه، مكث السيد الكبير إلى جواره يلقى بمحلول أزرق وقطعة من القماش على الجرح ليطهره من الدماء والتقيحات التي ملأت ظهره. كان فاقدًا للوعى. نهر السيد الكبير بومبي في حين تدخلت السيدة إلى جوار ابنها، كانت أصواتهم متداخلة، لم تعبأ تيودورا لتوبيخ السيد الكبير فلقد شعرت بكونها عبدة للمرة الأولى، كانت الحياة من قبل مثلما اعتادت وعاشتها وسط الجميع، عاشت وسط عبيد كثر مثلها، فلم تكترث لما عليها طاعة سيدتها في معاونة السيدة الصغرى وفى الأعمال المنزلية بجانب إرسالهم في موسم الحصاد سنويًا لجني المحصول من الأرض. كانت تسير من خلف سيدتها الصغرى ولكن ليس من قبل، فبالأمس أرسل ميترواديس للعمل في بناء القنوات، وجميع من ذهب من قبله لقي حتفه ولم يعد، كانت رغبة السيدة والابن الأصغر أقوى من سيدهم فأرسله إلى الأعمال الشاقة حيث يموت العبيد ويتم إرسال سبب وفاته إلى هناك.. روما.. اختفى ذكره من وسطهم

خوفا من العقاب.. كرهت تيودورا سيدها بومبي الذي أحبته منذ طفولتها سرًا وأرادت أكثر من ذي قبل أن يراها!!....

استيقظ فجرًا ووقف من خلف معلمه، أتت أصواتهم التي خرجت جميعها على كثرة مجموعاتهم في ذات اللحظة تردد صلوات الصباح، قبل طلوع الشمس انتهت صلوات الصباح فعادت كل مجموعة لتمارس أعمالها اليدوية حتى منتصف النهار، كان طعامهم القليل من الخبز والماء، ثم يجتمعون مرة أخرى في وقت الغروب حول معلمهم يستمعون إليه، جلس يوساف خلف معلمه "هلل" بجانب المعلم الذي التفّت حوله بقية المجموعات التي هجرت فلسطين وقررت الصعود إلى الجبال هربًا من المفاسد التي انتشرت بها ومنع الاختلاط بالنساء في وسطهم، كان يوساف ومعلمه هلل في مهمة محددة صعدا من أجلها الجبل، وكان معلم المجموعة يعلمها، لذا قال: نحن أمامكم اخترنا طريق الجبال لنا مسكنًا عرفنا فيه الرب.. نعمل من جهد أيدينا، لن نقبل أن نعود لنتدنس مثلما فعلتم من قبل وتدنست باختلاطكم بالأمم وإدخالهم في مساكنكم حتى عاقبكم الرب وجعل أصنامهم داخل الهيكل، نحن نصلى للرب حتى يقبل ويسامح فلسطين على ما جنت على نفسها.. رد هلل: ولكننا لم نأتِ في طلب أكثر من هذا، فلسطين تشتعل، جنود الحاكم يقبضون على من يستطيعون ويرفعونهم على أعمدة.. امتلأت النفوس بالخوف وجماعتنا تطلب الدعم.. أنتم سكنتم الجبال ومن دون دعمكم لن نستطيع قهر فيالق الرومان.. أورشليم ستدمر.. هيكل الرب سيصير مدنسًا بأصنام الأمم.. لم أدعُ للحرب يومًا ولكنها مشيئة الرب....

هبطا مسرعين من الجبل حيث تركا قافلتهما تنتظرهما بالأسفل، كان الجميع يعلم أن قيقرية وجهتهم للتجارة، لم يعد الأهالي يبالون بيوساف وعائلته منذ أن كثر الحديث عن حنان والده، ومنذ صغره اعتاد على سماع تعليقاتهم عليه في الطرقات وبين التلاميذ في درس الشريعة حتى كبرت تجارة والده واقتنى العبيد للعمل لديه في تجارته وبيته، واشترى الحقول واستطاع إحضار معلم خاص ليعلم ابنه الشريعة والقانون.. أراد حنان من والده أن يكبر ويسلك في مسالك علية القوم والكهنة ويصبح من الرؤساء في أورشليم، لكن رحلاته التجارية ازدادت وكلما سمع تعليقات القوم على رحلاته التي يخصصها سنويا لتجارته التي اتسعت مع الجليلين، وزاد الأمر سوءًا عندما قرر بعض التجار مقاطعته، ماذا سيأتينا من الجليل غير السوء؟ كان يوساف في صغره يهرب من صوت الصغار الذين يلاحقونه في أروقة المعبد: ابن الجليلي ماذا يفعل هنا؟ لِمَ أتيت لتنجس معبدنا أيها الجليلي الأمي؟ اخرج.. لسنا بحاجة إلى مزيد من غضب الرب علينا.. نضج يوساف وأصبح تلميذًا مفضلا لمعلمه هلل لكنه خيّب أمل أبيه لصداقته مع الأمم.. كان يصادق الجليلي ويستأنس مجالستهم حتى كثر القول ولقبوه بصديق الأمم، فكان خزي والده وصبيه الوحيد على الفتيات ولكنه سرعان ما استأثر لنفسه بصبية بنت فلاح في حقله لم تتعدَّ الخامسة عشرة من عمرها تدعى "إليصابات" فأنجبت له صبيًا آخر عده علامة مغفرة، فذهب وقدمه للهيكل مثلما طلبت نفسه حتى يصير من الكهنة وعلية القوم، وعادت إليصابات فأنجبت له ابنًا آخر فزاد من التضحيات التي يقدمها للهيكل بعد التضحية التي كان يقدمها بشكل ثابت

للإمبراطور الرومانى داخل الهيكل حتى لا يغضب على شعبه، في ذلك المساء عاد يوساف من مهمه الجبال إلى بيته فوجدهم يطهون ويعدون موائد الطعام للرؤساء والفريسيين حيث كان يقيم "سيسيتا يوميا"، دلف يوساف إلى الطابق العلوي حيث غرفته وارتدى أفضل الثياب وهبط ليقف بجوار والده يقدم للمدعوين في الوليمة، لم يكن من عادة والده إقامة الولائم اليومية في البيت والتقديم لفقراء اليهود.. لكنه مال عليه: ماذا؟ هل فرغت من أصدقائك النبطي وابن موآب وأتيت لتنجس بيتي منهم.. صمت يوساف ولم يعلق على توبيخ والده، فقد ماتت أمه وبرغم أنه الولد البكر لكنه يعلم ميل أبيه لزوجته الجديدة وتقديمه لابنه منها عليه، لذا أسرع بتوسيع تجارته الخاصة وتجارة والده من طبرية والجليل حتى قيصرية وداخل أورشليم، لم يكن يوساف يهتم بأن يحقق حلم والده في أن يصير من الكهنة فاستراح عندما انصرف والده عن فكرة الهيكل وتمنى لو يفعلها مع الصغير، لكن زوجته الشابة بكت حتى رق قلبه لها فتركه، لقد أرادته أن يخرج وسط الحقول لتكون من نصيبه في المستقبل، لذا حذر يوساف من خططها، كان الأثير لدى معلمه هلل الذي تنبأ أمامه بالهلاك القادم بعد أن زاد عدد الأمم في وسطهم ولم تعد آذان الحاكم تسمع لهم، كان يعلم أن الحقل والرتبة لن يفيداه حينها، لكنه لم يرفض طلب معلمه في الصعود معه إلى الجبال والتحدث إلى أهلها الساكنين في عزلة منذ سنوات قلائل بها هربًا من تفشي الأمم في المدينة، وبعد أن شاهدوا التقديمات التي تقدم في الهيكل باسم الحاكم والإمبراطور إرضاءً له ولم يستمعوا إلى أقوال الرؤساء بأن يجعلوا في قلبهم تلك التقدمة للرب، وأما في العلن فهو للإمبراطور

وحاكمه.. وقف العبيد يقدمون الأطعمة للجالسين على الموائد العامرة، بينما البقية منهم وقفوا من خلف الشرفات يراقبون الوليمة وهي توضع ويحسدون بقية زملائهم الذين تمتعوا برؤية تلك الأطعمة التي لا يسمح لهم بتناولها توضع أمامهم.. من المرات القليلة التي يصنعها سيدهم.. وقف "عازر" من بعيد يراقب الموائد الموضوعة عندما طلبه سيده ليعمل مع بقية العبيد في تقديم الخمر للمدعوين، منذ أن بيع لسيده الجديد لم يرَ موائد مثل تلك من قبل.. منذ أعوام قليلة كان العاشر من بين إخوته، ووالده ينتظر الآن أطفالاً جددًا من زوجته الجديدة، قيل له إن أمه أنجبته بمفردها من دون أن يساعدها أحد كعادة الفلاحات الفقيرات، وكان والده حينها في الحقل، ولد في فصل المطر، في ذلك العام هبط الصقيع وزادت كميات الأمطار، نزل الثلج مرتين على أورشليم وزاد المحصول، حمد والده الفلاح الرب وقدم نذوره في موعدها لأن أسراب الجراد لم تأتِ هذا العام وتدمر المحصول مثلما حدث في العام الماضي فاستبشر بوجه ولده وتفاءل، فكان يجلسه معه في الحقل منذ صغره ويتفاخر بأنه أتى في يومٍ فردي وليس زوجيًا وأنه نذير خير. ظهرت الفواكه من محصوله واستمر عدة سنوات، لكن الجفاف حل والمطر توقف عن الهطول في أورشليم لمدة عامين، ترجى أن تهطل ولكن هذا لم يحدث، فى صباح أحد الأيام أمره وأخاه الأصغر ذا التسع سنوات أن يأتيا خلفه في الصباح الباكر، اعتقدا أنهم ذاهبون إلى السوق وأن الأمطار قد حلت في المساء وها قد أتى موعد الذهاب إلى السوق وشراء الطعام اللازم للبيت، كان يحلم ببعض الفريك والخل الذي حرم منهما لعدة أيام، كانت والدته تضع حبلا سميكًا من حول

وسطه، وكلما اشتد جوعه تشد الحبل أكثر من حول وسطه حتى نسي ألم الجوع وتذكر الحبل السميك، ركض وأخاه يلاحقان قدمي والده الواسعتين ورأسه المنحني إلى الأسفل، اتجهوا إلى السوق، كان هناك في تلك الحانة تجلس صبايا وفتيات أصغر وأكبر منهما، كان الرجل الطويل مشغولاً بترتيبهن فوضع الفتيات الصغيرات في الواجهة ثم الفتيان الصغار ثم الفتيات والشباب، نظر في وجه والده ثم أمسك الصبيين.. ارتعش عندما تفحصته يد الرجل الكبير وتفحصت جسد أخيه الأصغر.. لمح والده يتحدث مع الرجل، وضع صرة صغيرة في يد والده ورحل.. انتحب أخوه الأصغر ولكن الرجل الكبير صرخ في وجهه ليصمت، كان عازر صامتا بعد أن بيع في السوق، جلس بجوار الفتية في مثل عمره، مضى النهار وكان يقف على صندوق خشبي مثلما أمره الرجل الكبير حتى انتصفت شمس النهار وسمع صوت الرجل الكبير يستلم المال ليُسحب من يده خلف رجل آخر بعد أن سمعه يتحدث: والده أوصاني أن لا أجعله يعمل أكثر من عشر ساعات في اليوم، وهو من قام ببيعه يا سيدي، لذا أستحلفك بالرب أن لا تجعله يعمل في الحمامات أو الحلاقة أو الخياطة، وسوف آتي لأستلم صك عتقه بعد سبع سنوات منك يا سيدي لأعيده إلى بيت أبيه.. انتظر عازر سنوات سبعًا ينتظر عتقه، لكن الجفاف زاد على الأرض، همسا سرًا أن الرب يعاقبنا على أخطائنا الكثيرة في حقه، لذا أوقف المطر والخير عنا..

فى تلك الليلة اشتهى قطعة اللحم من الذي وضع أمامه، كان آخر الليل والخمر نفدت وبدأ الضيوف في الانصراف.. وتأثر أهل البيت من جراء الخمر.. فأسرع يخرج بقايا الطعام من على الموائد ويسلمها لزملائه العبيد

ليخرجوها حتى مخادع نومهم، وانتظروا حتى غط الجميع في النوم، وانخفضت أصواتهم وهي تأكل اللحم في شراهة، جلس إلعازر يراقب من تحت النافذة التي ينام أسفلها على تبن الماشية الخاصة بسيده حتى يتأكد أن لا أحد من أهل البيت استيقظ، حثهم على الإسراع في تناول الطعام وإعادة الأطباق إلى محلها قبل أن يشعر أحد باختفاء تلك البقايا فيعاقَب من سيده.. فى صباح اليوم التالي علمت سيدة الدار بما حدث من العبيد فوشوا لها باسم من أخرج الطعام لهم فحكم عليه بالعمل لديهم سبع سنوات أخرى حتى ينهي ماعليه من ثمن الطعام المسروق من سيده، ولم يُسمح له بالدخول لبيت سيده الذي أرسله للعمل في الحقول، وعندما حصل الجدب والجفاف أرسله لحمامات المدينة حتى يعمل بها.

٣

تقدم "شبهر" في خطوات واسعة ومن خلفه بقية الأعضاء من الباب المخصص لهم للدخول في ناحية الهيكل، جلس الأعضاء في الصالة المخصصة لهم وبالتدريب المعد لهم سابقا طبقا لرتبتهم، وانتظروا حتى جاء رئيسهم وأتم السبعين، جلس أعضاء دار القضاء الأكبر، صمت الجميع حتى تحدث شيخهم الأكبر: تعلمون سبب اجتماعنا اليوم، الأهالي بالخارج ينتظرون.. اندفع شبهرعضو السنهدرين الأصغر: نحن بيت دين جدول.. دار القضاء الأعلى نحكم مع الناس لقد سرق بيلاطس مال تقدمتنا.

قاطعه آخر أكبر سنًا: لقد بنى لنا خزان مياه لم يكن لدى أورشليم من قبل. فرد الأصغر: كيف تقول هذا؟ لقد سخط علينا الشعب وخرج منهم علينا لأننا سمحنا له بأخذ أموال الرب والنذور الموضوعة أمامه من أجل خزان المياه، ومن قبل حمل الشعب على تقدمة الإمبراطور.. قاطعتهم يد الرئيس فصمتوا: الشعب محتاج وعليه أن يهدأ قبل أن يتأذى الجميع هنا، سوف أطلب المثول أمام الإمبراطور ولنرفع له شكوانا حتى لا نجلب علينا غضب الحاكم أو الشعب..

كان أعضاء السنهدرين مجتمعين في الجزء المخصص لهم بالصالة الحجرية المنحوتة خصيصا لهم، بينما انفتحت أبواب الهيكل للقادمين لتقديم التضحيات للإمبراطور من الرواق المخصص للأمم، وبالخارج بالقرب من

أسوار الهيكل جلس الصيارفة وبائعو الحمام يبيعونها للفقراء من الأهالي الذين تألموا في موسم الجفاف لشراء زوجين من الحمام بشيكل واحد لتقديم نذورهم بداخل الهيكل، كانت الحركة تتم في استقرار، وبالجانب الأخر من الهيكل كانت هناك قلعة أنطونيا الهادئة من بعيد ولكنها تعج بالحركة من الداخل، حيث لم يلحظ أحد في السوق تلك الأعداد التي تسربت من ناحية القلعة وارتدت العباءات السوداء وخرجت بانتظام تخفي الخناجر التي تمنطقوا بها.. وساروا بحذر حتى التفوا حول بوابة الأمم أمام الهيكل.

أمسك "يوسف" في ذراع والده بقوة محافظًا على وصية أمه حتى لا يضيع وسط زحام المعبد، كان يوسف وحيد والده، انتظره أبواه أكثر من عشر سنوات بعد زواجهما وتحمل والده نظرات الإهانة التي كانت تلعنه وتلاحقة في الأروقة والهيكل وسط العمال في السوق وحتى من أهل بيته.. سمع صوت إهانته لأنه لم ينجب، لم تتوقف زوجته عن البكاء برغم أنه لم يتزوج عليها، اقتنع أن الرب يعاقبه لخطأ ارتكبه ولم يغفر له، لذا استمر لسنوات يقدم نذوره للهيكل حتى يتحنن الرب عليه ويعطيه الصبي حتى صرخت زوجته في بهجة بعد أن أكدت لها المرأة أنها حامل، يومها حملها وذهبا إلى الهيكل حيث قام بتقديم العجل تقدمة إلى الهيكل ووفاء بنذره، لكنه رفض أن يترك الصبي في الهيكل، بداخله رفض لسنوات، انتظره وسوف يكبر ليكون تخليدًا لذكراه في الأرض وينجب له الأبناء.. رفض أن يتركه منذورًا وقرر أن يضاعف من تقديماته التي يقدمها خاصة بعد ازدهار تجارته في قيصرية.. بعد ست سنوات حمله للهيكل وكان حينها تعلم أن

يقرأ اللاويين الأوامر والنواهي ولم يتعلم الصلاة بعد، فسوف يتعلمها بعد بضع سنوات قليلة حينما يتم الاثني عشر عامًا ليتلوها ثلاث مرات يوميًا.. نبهه صوت والده من شروده: "كاتون " تقدم إليّ هاهنا.. لم يكن أتم السن الذي يسمح له بدخول فناء الرجال بعد ولا أن يصوم.. لكن والده الذي شعر بالذنب لعدم تقديمه كمنذور أراد أن يصطحبه معه إلى أورشليم قبل أن يعود إلى قيصرية مسرعا ليكمل تجارته.. كان يوسف أول من تنبه لصوت المرأة التي تصرخ ويضيع صوتها وسط الزحام، لكن سرعان ما ارتفع صوت الصراخ والضجيج حينما دلف من وسطها ذوو العباءات السوداء يحاصرون الهيكل فيما حطم بعضهم صناديق الصيارفة وقاموا بسرقة أموالهم.. كان الصغير يوسف يشاهد الرجال يركضون من أروقة الهيكل وصوت النساء.. جال ببصره من حوله يبحث عن والده الضائع في الزحام.. لمحه هناك من بعيد.. ركض نحوه، ابتعد عن الأقدام التي كادت أن تسقط من فوقه وأخرى تدهسه.. كان والده يجول ببصره في فزع ويصرخ باسمه.. فى حين ركض الصغير نحوه.. كان على بعد خطوتين من والده يكاد يمسك بتلابيب ملابسه حتى سقط.. لقد شاهده ذلك الذي يرتدي عباءة سوداء، ضرب جنب والده فسقط على الأرض وسال دمه، حاول أن يركض وسط الزحام ليرفع والده من على الأرض، شاهد اللون الأحمر القاني يحيط بوالده الساقط على وجهه، اقترب ليضع يده على وجه والده ليوقظه من نومه مثلما اعتاد، لكن يد ذي العباءة السوداء حملته وركضت به بعيدًا وسط الصرخات والرجال الساقطين مراقي الدماء في صحن الهيكل...

"ثيودورا" تعالي إلى هنا.. ركضت حيث سيدتها الصغرى التي جلست في حديقتها الخلفية بينما أحضرت لها ثيودورا الطعام.. اكتسى البيت بالبهجة بعد أن علم الجميع خبر زواج السيدة الصغرى من حاكم الجليل.. كان على السيدة الصغرى أن تتحضر- لحمام العطور المعد لها في بركة السباحة الخاصة بالحديقة الخلفية، بينما جلست من حولها الفتيات ليطيبنها.. كان رجال الحاكم قادمين اليوم لبيت السيد الكبير لجلب ابنته الصغرى ليطوف بها موكب الحاكم بأورشليم في طريقه إلى الجليل. كانت السيدة الصغرى هي المقربة الوحيدة لثيودورا في البيت الكبير.. منذ أن مات مترايديس من المرض بعد أن جلده السيد الصغير وهي تشعر أن ذلك البيت الكبير لم يعد لها.. شعرت ببعض الغصة لكونها عبدة بينما انهمكت تيبي في معاونة سيدتها الصغرى، كانت تحاول نسيان يوساف الذي عاد منذ أشهر ولم يتذكرها أو يحاول مشاهدتها، أخبرتها أنني سمعت من السيدة الصغرى أنهم لا يتزوجون أو يحبون سوى من نفس نوعهم.. كانت السيدة الصغرى تشعر بالاشمئزاز كلما تحدثت عنهم، كانت تتحدث مع والدها السيد الكبير في صحن البيت وهي تدرس على يده الفلسفة، لم تفهم ثيودورا معناها لكنها سمعت السيد يرفض طلبها في الخروج إلى الأسواق بعد توالي أخبار الغوغاء - مثلما قال السيد - الذين خرجوا وقتلوا الناس في الهيكل وهربوا، يقول إن بيلاطس يبحث عنهم وسوف يعاقبهم كما يليق بالقانون الروماني حتى لايتكرر هذا الشغب مرة أخرى.. بعد أن اختلطت دماء النساء والرجال داخل صحن الهيكل بلا تمييز، ولم يُعرف القاتل وسط الزحام.. كان السيد الكبير يتحدث لابنته في قلق، لأول مرة يحدث ذلك القتل

العشوائي بأورشليم، كان السيد يتحدث عن الخطر.. قال لابنته: أعلم أن الحاكم تسبب في ذلك، نصحته أن يبتعد عن أموال هيكلهم، إنه المقدس لديهم والغوغاء ينتهزون الفرصة لإحداث الشغب في أورشليم، لكنه لم ينصت إليه.. سألته ابنته عن بومبي.. ارتجفت ثيودورا حينما لفظ اسمه، لاتدري محبة أم كرهًا، لكنها لم تغفر له موت ميترايديس أبدًا ....

عاد السيد بومبي إلى بيت السيد الكبير ليحضر مراسم زواج شقيقته من حاكم الجليل.. عاد بمفرده من دون العبدة الأثيرة التي اصطحبها معه إلى قيصرية لكنها اختفت الآن.. ارتجفت ثيودورا أكثر عندما طلبت إليها السيدة الكبرى أن تقوم بخدمة سيدها بومبي طوال فترة إقامته حتى يعود إلى قيصرية مرة أخرى.

لمحتُ عينيه اللتين تتبعانني وأنا أسير خلف سيدتي الصغرى، لم تلحظني عيناه من قبل.. قبل ذلك أردت أن تشاهدني عيناه، أما اليوم فلم أردها، أردت أن أنتظر منحي العتق حتى أعود إلى الإسكندرية.. منذ أخبرني ميترايديس عنها ولم أغفل.. أخبرني أن لديّ أمًا لا تزال حية وأننا من هناك ولست من هنا مثلما اعتقدت.. وعدته أن أصير حرة وأن أعود إلى الإسكندرية وأبحث عن "ماري".. والدتي.. وعدته أن نصير أسرة.. أخبرني أنني هناك أستطيع أن أحصل لها على حريتها أيضًا..

طلبني السيد أن أذهب لغرفته، كنت أعلم أنني أَمَة والأمة متعة سيدها، هكذا أوصانا النخاس صغارًا، لذا لم يكن يحق لي الرفض.. تركت السيدة الصغرى بعد أن ودعتها، صباحًا سترحل مع السيد بومبي حيث قيصرية..

خرجت الفتيات المصاحبات للسيدة الصغرى حتى بيتها الجديد، تزينت، جُهزت الأحصنة وامتطاها فرسان السيد الكبير الذي تقدم على صهوة جواده موكب ابنته، كانت تيبي من خلف الفتيات.. لمحت ابتسامتها الحزينة.. تذكرت ضحكاتنا في الليل من قبل عندما أخبرها يوساف أن والده سقط من على حماره لأن عبده نسي- وضع ذيل الثعبان بين عينيه، وعوقب العبد على خطئه بأن أُرسِل للعمل في حمامات المدينة.

تطلعت النسوة إلى بعضهن وهمسن.. كانت المرأة تتلمس باب بيتها، كانت تهمس لنفسها: لقد نسي- وضع الصندوق، هو المخطئ، لقد نسي- وضع الصندوق.. قامت إحدى النساء لتسحبها من أمام باب بيتها لتدخلها إلى الداخل، لقد صارت امرأة ولا يجب عليها الخروج من البيت قبل أن يأتي شقيق زوجها الراحل ليأخذها إلى بيته.. لكنها لم تتوقف عن الهمس، حاولت النسوة تهدئتها لكنها كانت تهذي.. لقد نسي الصندوق، ترك البيت في المهب ولم يعلق الصندوق الخشبي ولم يضع بداخله قطعة الجلد ولم يكتب الشهادة عليها.. غضب الرب وانتقم منه.. وما ذنبي أنا؟ أريد صغيري يوسف، أعيدوه لي.. كانت النسوة يخرجن من البيت ولم تتبقّ سوى زوجة أخي زوجها المتوفى الذي قدم في المساء بعد أن انتهى عزاء أخيه وأمر النسوة بحمل زوجة أخيه إلى البيت.. كان مُكرهًا ولكن عليه تنفيذ التعاليم، سوف ينجب منها صبيًا وسيكون باسم أخيه المتوفى حتى لا ينقطع ذكره من الأرض ثم ينجب منها البنين له.

كان يصعد ببطء درجات السلم وهو يمر من خلال حرم العابد ويمر عبر أبوابٍ ذهبية ليدخل منها إلى بهو الكهنة، اقشعر جسده بالهواء البارد الذي ضربه، كان أمام المذبح في الهواء الطلق، تقدم ببطء وهو يقدم قرابينه المقدسة للرب، تحرك.. أكمل صعوده الدرج الطويل، مر خلال أبواب البرونز والكرمة الذهبية ودخل إلى بوابة الكهنة المخصصة لهم فقط، تقدم نحو المائدة ذات الفروع السبعة حيث مذبح البخور وخميرة التقدمة، كان أمامه الستار التي يحمي قدس الأقداس أثناء التقدمة للرب، تقدم الكاهن الأكبر لتقدمة يوم الكفارة بينما انتظره بالأسفل داخل بهو الكهنة بقية كهنة الفريسيين والصديقين.. أخبرهم أنه سيحضر الإجابة لهم في ذلك اليوم، كان يوساف يجلس خلف معلمه هلل الذي وقف ينتظر خروج الكاهن الأكبر، وقف في الجانب الآخر منلاوس وكان يراقب من بعيد، تأخر الوقت ولم يخرج الكاهن، كان منلاوس في الخارج ينتظر الرسالة التي أرسل في طلبها منذ الصباح، طرف بعينه باتجاه الآخرين، كانوا يعلمون لِمَ قَدِم اليوم، لقد أرسلته جماعته برسالة من الزيلوت، كان الغيور وراء ما حدث في ساحة الهيكل، تقدم منلاوس باتجاه هلل الذي جلس صامتا، نظر له:هل أعجبك ما يحدث؟ لو لم تقنع الكاهن الأكبر بالصمت وتركتمونا بمفردنا لما اجتمعنا اليوم.. رد هلل: أنتم من تسبب في قتل الفقراء، لا قِبَل لنا بحراس الرومان.. كتم منلاوس غيظه وهو يتجنب رفع صوته في صحن الهيكل: تقدمون للإمبراطور داخل الصحن المقدس ..أنت وكاهنك.. اليهودية كلها سوف تدفع ثمن خطئكم أتسمع؟ قل لكاهنك الأكبر أن يعود لصوابه، الوقت وقت قتال ومن ليس معنا فهو ضدنا.. لمح منلاوس

يوساف وهو يقترب من معلمه هلل فتراجع إلى الخلف وهو يرمقه بغضب ووقف بانتظار الكاهن الأكبر في الجانب الآخر من الصحن الواسع. فى ذلك المساء سُمِعَ صراخٌ عَمّ المدينة "قُتِلَ الكاهنُ الأكبر، وُجِدَ مضرجًا بالدماء داخل الصحن المقدس" فزع سكانها من الأخبار وأُغلِقت المحال والدكاكين لعدة أيام، فبعد ما حدث في الهيكل من ذوي العباءات السوداء انتشر وسط ألسنة الناس أن أتباع الغيور هم من قاموا بفعلتهم، لذا خاف الأهالي ولم يخرج سوى الفلاحين لجني القمح الضروري لبقية العام، وكلٌ منهم خائف من غدر سكينٍ مجهول سيأتي إليه من شخص مجهول فلا يعرف من القاتل.. لكن الصبية أمام البيوت الضيقة المتراصة بتساوٍ في الحارة الضيقة كانوا يتغنون بأصحاب الخناجر، وكان من يمسك منهم ومعه خنجره الخشبي يعاقب حتى عم الفزع من أصحاب الخناجر الجدد.. كان يوساف جالسًا في بيت معلمه هلل الذي استغرق في كتابة السِفر الذي أمامه بعد أن تطهر لأجل كتابته جيدًا، كان المعلم هلل في الأربعين من عمره هادئ الطباع، كان يعلم أن الغيور أصبح عدوه بعد أن كان من طلاب علمه في الماضى القريب لكنه اختار القتال.. صمت يوساف ينتظر في صبر معلمه حتى يفرغ من كتابته فلم يكن مسموحًا لأحد أن يقاطعه حينها، ولكن يوساف حظي بمكانته الخاصة لدى معلمه الذي نصحه بألا يتبع قلبه في طلب الكهنوت وأن يصبر حتى ينفذ مشيئة الرب من خلاله.. قال له: اليهودية ستمر بوقت صعب لأنها ابتعدت بقلبها عن الرب منذ زمن، وتأديبه قادم لا محالة. رفع هلل رأسه من على رقعته، تطلع إلى يوساف: لِمَ أتيت؟

أنت من طلبني يا معلمي؟

لا أسألك لِمَ أتيت.. لمَ تريد الكهانة؟ تعلم أنها لا تحق لك فأنت تصادق النبطي والسامري والجليلي ولن يحق لك الاقتراب من الكهانة...

تلعثم يوساف: أحاول مساعدتهم، ربما..

ربما ماذا يا يوساف؟ استمع.. الدور قادم عليه لامحالة، الغيور سينتقم ممن خالفوه.. ما حدث في الساحة ليس لأجل الرومان فقط بل نحن أيضًا.. واليوم لم يكن سوى الكهنة على علم بدخول وخروج الكاهن الأكبر خلف ستارته.. قتلوه في قدس الأقداس ومن وسطنا من يتبعهم.

ازدادت لعثمة يوساف: يا معلم.. قاطعه هلل بذراعه: لا تكذب لا تزد من أخطائك، يكفيك الشر الذي صنعت.. هيا ارحل له وأخبره أنني لن أقبل بقتلٍ وبدماء أبرياء جدد.. أعلم أن من معي قليلون ولكني أخاف وجه الرب.... هيا ارحل....

٤

تقدمت تيبي في خفة ووقفت خلف أحد أعمدة الهيكل، غطت نفسها داخل عباءة وتلفتت لتتأكد أن لا أحد قد لاحظها وهي تتسلل من بهو الأمم وتتخفى في نهاية الممر خلف الأعمدة.. مرت لحظات كانت تسمع فيها صوت دقات قلبها التي كادت أن تنفجر، شعرت بأحدهم يقترب، شهقت فوضع يده على فمها وأمسك بكتفها حتى تهدأ، همست يوساف.. أمسك يدها وجذبها لتتراجع ناحية الجدار المظلم، كان وقت الغروب وقد أرسلتها السيدة بصحبة ثيودورا إلى الخياطة لجلب الأقمشة، ولكن ثيودورا احتالت حتى تذهب صديقتها تيبي للمعبد، وقف يتطلع إلى وجهها.. ابتسمت: تأخرت انتظرتك طويلا..

اقترب منها أكثر.. همست: سيرسلونني إلى قيصرية.. سيدتي الصغرى تريدني أن أخدمها في بيتها الجديد..

نظر لها في حذر: تزوجت من الحاكم ...حسنا

حسنًا!! ألا تريدني أن أبقى.. يوساف.. تحدّث، هل هناك أخرى أحببتها ونسيت تيبي؟

رد بهدوء: لا ولكني سأراك هناك في قيصرية، سآتى خلفك.. همس: هناك أفضل من هنا، يمكننى أن أراك دون خوف بعيدًا عن أعين الجواسيس وحراس الهيكل.. بعيدًا عن أبي..

ردت: لكن إن كنت تحبني لِمَ لا تعتقني من سيدي؟ يمكنك شرائي وأكون معك للأبد..

تراجع إلى الخلف: ماذا؟ لا.. لا يمكن.. لا يمكنني أن أدخلك بيتي.

لماذا؟

إنها شريعتي

شريعتك! ولكن فيمَ أخطأت أنا؟!

شرد وقال: إذا فعلتها سأجلب على نفسي الحساب.. تعلمين سيسلمني أبي لرؤساء وسيرجمونني وربما معك...

نُقتل! ولكن لماذا؟ لأجل الحب! اسمع.. لقد أعطاني سيدي حق الحب، فيما مضى لم يكن يحق للعبد الزواج ولكني الآن يمكنني أن أحب وأتزوج.

تراجع يوساف في فزع: ماذا؟ هل جننت؟

قلت لك شريعتي ترجمني.. إلهي يطردني إذا أدخلت أممية إلى بيتي.

ولكن ماذا فعلت أنا لإلهك حتى يحكم عليّ بالموت؟ أنا أيضًا تحديت زيوس لأجلك، أنت لا تؤمن به وأعلم أنكم تحقرونه في هيكلكم.. ربما عاقبني ولكني طلبت من إيزيس أن تدعمني، ستعرف مشاعري وتتفهمني.. قاطعها بصوت حازم خفيض خائف: اصمتي.. سيغضب عليّ الرب.

ربك سيغضب منك لأنك أحببتني؟

بل لأنك تعرفينه، نحن نعبد إلهًا واحدًا أعطانا شريعته نتوارثها من الآباء ولا يمكنني أن أخِلّ بها، إذا علم قومي قتلوني، أفهمتِ...

حسنًا إذن، إذا آمنت بإلهك فهل سأكون بقربك حينها؟ لن يغضب منك؟ أنا أراقب نساءكم وهن يدلفن إلى الهيكل ويقدمن بخورهن وقربانهن لديكم في بهو النساء.. أعتقني وعلّمني شريعة آبائك وأكون معك دائما.. ألا يستطيع هو أن يحميني من غضب آلهتي عليه؟ حسنًا أنا سأتبعه...

حدق في وجهها في صمت، تفرس في ملامحها.. بالأمس في تجارته حبس السامري داخل حمام المدينة وتركه وهو يضحك مع رفقائه في القافلة.. جسده الذي يقشعر من الاقتراب من السامري وأيام الغفران التي طلبها لنفسه بعد أن تطلعت عيناه بالسامرية وأرادها لنفسه حتى وإن كانت من بائعات الهوى.. كيف سيقبل أهله بمتهودة وأيضا رومانية... تراجع إلى الخلف وانصرف عنها، تركها لاتزال مذهولة تحدق في البقعة الفارغة التي تركها من خلفه ورحل بعيدًا، كادت تسقط ولكنها استندت إلى الحائط.. ابتلعت ريقها وحاولت أن تخرج الهواء الذي كتمته داخل صدرها تنتظر جوابه بعد التحديق الطويل بوجهها.. كانت ثيودورا محقة عندما قالت لها إن السيد الكبير ينعتهم بالغوغاء.....

وقفت ثيودورا خلف أسوار الهيكل الكبير في أحد الأروقة الجانبية تترقب خروج صديقتها من المعبد، ولكنها تأخرت فبدأ الخوف يدب في أوصالها،

ماذا إذا علمت السيدة والسيد الصغير منذ قريب فقط قربها منه؟ ماذا إذا علم بكذبتها ؟!....

لمحت شبحها يتحرك في اتجاهها، كانت منكسة الرأس، حاولت ثيودورا فتح فمها فلم تمهلها، جذبتها من يدها سريعًا ورحلتا بعيدًا عن المعبد. ومن خلفها كان تمثالا زيوس وأبوللو يزجرانها بأعينها، والفتاتان تركضان من أمامهما بعيدًا ....

وشى العبيد به بعد أن هددهم السيد بمعاقبتهم جميعًا بالجلد إذا لم يتحدثوا عن من سرق طعام الموائد، أخرج لعازر للعمل بالحمامات، داخل العمل بحمامات المدينة تعلم أن يميز الجواسيس جيدًا حتى وهم يتخفون من حول الأهالي بين الهيكل والمعبد، داخل الأسواق، داخل دكاكين الحلاقة والحمامات، اختلط جواسيس الحاكم بجواسيس المحكومين، كلاهما يتجسس على الآخر وسط الناس حتى نفذوا بين جلودهم.. كان ينام في الحمام حيث أودعه سيده ليكفي حق الطعام الذي سرقه، عندما سمع صوت طرق خفيف، كان الوقت متأخرًا ولا أحد يأتى إلى الحمام في ذلك الوقت، اشتد الطرق على الباب، قام مسرعًا وفتح الباب ببطء فلم يمهله الطارق حتى كمم فاه.. رأى الخنجر مشهورًا أمام عينيه فالتزم الهدوء والصمت، أغلق الباب بحرص وأرشد الغريب بيده إلى الدخل حيث غرفة العاملين بالحمام والتي كان ينام فيها بمفرده، هو من سمح له سيده بالمكوث فيه ليلا.. كان عازر يرتجف وهو يرى الخنجر: تفضل ياسيدي اجلس.. هل تريد الحمام؟

من فضلك لا تؤذني، لايوجد لديّ هنا ما يمكنني أن أعطيك إياه سوى الاستحمام.

زجره الغيور: اصمت.. أيها العبد الأممي.

لا يا سيدي لست أمميًا.

رمقه الغيور: من أى بيت أنت؟

يهوذا.. أصلي من يهوذا ياسيدي، ولكن أبي باعني في السوق عند سنوات الجفاف.

متى تعتق؟

سيدي لن يعتقني وأبي لم يعُد ليستردني...

جال الغيور ببصره يتفحصه جيدا، فتى في السابعة عشرة شديد البنيان يصلح للمهمة.

أتأتى معي يا عازر؟

إلى أين يا سيدي؟

حيث أعتقك وتصير حرًا وتخدم دينك، ألست يهوديًا؟

تلعثم لعازر: نعم ياسيدي.

حسنا إذن مكانك ليس هنا بل هناك في صفوفنا حيث نقاتل أعداء مدينتنا، هل تأتي معنا لتتحرر أم ستبقى عبدًا لمن أكل الطعام وشرب مع أعداء إلهنا حتى جلب على أورشليم الخراب؟

دلف ميلاوس من بوابة نيكانور حيث الهيكل يتبعه مجمع أعضاء القضاء الأعلى حيث أجلسوه في وسطهم.. كانت الرسالة التي وصلت إلى بيوتهم بالأمس تنذر بالأسوأ إذا لم يكن هو على رأس مجمعهم ماعدا هلل الذي قرر عدم الحضور وتلاميذه. تطهر كهنة الفريسيين قبل أن يحضروا اجتماع ميلاوس، كانوا يعلمون أنه خاطئ وخلف قتل الكاهن الأكبر، لذا قرروا أن يتم تطبيق الشريعة عليه ولكن خارج الهيكل المقدس حيث لا يجوز أن يلطخ بالدماء.. كان إليشع رئيس طائفة الفريسيين يجلس عن يمين ميلاوس ينتظران حضور حنا الصدوقي الذي رمقه إليشع بنظرات الغضب والكره، كان إليشع يعلم أنه لولا الصدوقيون لما خطى ميلاوس بقدمه داخل الهيكل ولتم فيه الحكم، ولكن كنوز الضرائب والتقديمات التي كانت تصل إليهم أول ما تصل جعلتهم يباركون دخوله الهيكل وموت الكاهن الأكبر، بدأ ميلاوس الكلام مبديًا بركته على حنا، كان إليشع يقف مع ميلاوس بعد أن زاد عدد طائفته على طائفة حنا الصدوقي، فلقد تعهد إليشع أمام طائفته ألا يجعل أحدًا من الصدوقيين على رئاسة القضاء وهو حي.. لم يكن أمام إليشع سوى مناصرة ميلاوس ولكنه كان يعلم أنه لن يبقى طويلا.. الغيورون علموا بمقتل كاهنهم الأكبر وسيعودون للانتقام، والشعب محتاج، كان الفريسيون يريدون دعم الشعب بينما انتفخت أوداج حنا بعد أن تسلم أموال الذبائح.. نطق ميلاوس علينا: تهدئة الشعب، لا يجب أن نتركهم للغيور.

قاطعه الفريسي: نحن مع شعبنا أم مع الحاكم؟ قاطعه ميلاوس: استمع لي يا إليشع، شعبنا مر بالكثير من قبل، وإذا تركناهم سنعرضهم للموت، لا قِبَل

لنا بالرومان.. أتفهم؟ نظر إليشع لحنا الذي ظل صامتا ثم تحدث ببطء: سيدي ميلاوس محق، شعبنا فقير أغلبه من الفلاحين والفقراء، كيف لهم أن يقفوا ضد حراس الحاكم والرومان؟ ماذا إذا أرسل لنا من رومية؟ هل يستطيع الغيور واللصوص رجاله أن يوقفوا فيالق الرومان حينها؟ هل نسيت ما حدث من قبل؟

قاطعه إليشع بغضب: بكم صمت على الدماء يا حنا؟ وأشار بيده لميلاوس.. هنا على هذا الكرسي دماء صمتنا عنها، إذا هلكنا فسنهلك لهذا.. خرج بغضب ومن خلفه كهنة الفريسيين تاركين قاعة القضاء أمام الصدوقيين الذين التزموا الصمت، منذ سنوات طويلة لم يحظَ الصدوقيون بأغلبية في عدد أعضاء السنهدرين.. كان حنا الصدوقي يرمق إليشع وجماعته وهم يرحلون بنصف ابتسامة خبيثة.. فى مساء ذلك اليوم وُجِد ميلاوس مقتولا في أروقة الهيكل.. لم يتحرك أحد لنقل جثته ودفنها بل حملوها وألقوها بعيدا عن الهيكل حتى لا تدنسه بدمائها وتركوها حتى تعفنت، بينما أسرع حنا باختيار أحد أفراد جماعته والمتفق عليه مسبقا ليتسلم رئاسة السنهدرين الجديد...

استيقظت "حنة" مع شروق شمس الصباح، فتحت باب البيت على مصراعيه وشرعت بفتح النوافذ، لمحته في نهاية الرواق، كانت تميزه من بعيد بطوله وجلبابه من التيل الأبيض وعلى كتفه فأسه، تعلم أنه في طريق الجبل، تمنت في سرها لو كان في طريقه لحقلٍ ما حتى لو عمل أجيرًا يحمل طعامه في نهاية اليوم، نظرت لغرفتها من حولها في تبرم،

الصغار لم يستيقظوا بعد، تكوم الصغيران في حضن بعضهما البعض باحثين عن الدفء من البرد القادم من الأرض، عباءة والدهما لم تكفيهم جميعا للتدفئة، نفدت الشمعة ونفد الزيت، لن تشعل قنديلها هذا المساء، ربما لن يأتي هذا المساء ويفضل البقاء معهم في الجبل، استيقظ الصغيران، وضعت عباءتها السوداء والشال على رأسها وخرجت مع صغيريها ناحية مزرعة الكرم، في طريقها مرت على السوق، نظرت للبائع، كان طابور الصبية الصغار لديه يزداد، نظرت لأطفالها ثم أمسكت بيديهما بقوة وأسرعت في الخطى، كان عليهم جمع محصول الكرمة وعند الغروب وقفا في الطابور حتى وصلا لرئيس العاملين فتسلمت بعض الفريك والخبز، ابتسم الصغيران، سيتناولان العشاء اليوم، كانت الحارة الضيقة مظلمة، كانت تحفظ خطواتها، دخلت إلى غرفتها وأغلقت الباب جيدًا، فقد حل المساء ولن يستقبلوا زوارًا اليوم. جلسوا على الأرض، تناولوا الفريك والخبز على عَجَل، رفعت حنة يدها عن الطعام القليل حتى يكفيهما للغد، ناما إلى جوارها وألقت عليهما رداءها، كانت تعلم أنه مثقوب والهواء ينفذ من خلاله ولكنه كل ما لديها، حاولت أن تستمع للطريق علها تسمع خطواته وهى قادمة رغم أنها تعلم أنه سيدلف إلى الأرض في الناحية الأخرى جوار الصغار لينام وتظل هي تراقبه من الطرف الآخر والصغار راقدون في وسطهم، وهي صغيرة حلمت بغرفة واحدة تكون لها بمفردها بعد أن وُلِدت وسط اثني عشر شقيقًا وزوجتين في بيت من غرفتين كل زوجة وأولادها في إحداهما، رحل والدها ذات مساء بعد أن ضاع منه حقله عندما لم يستطع تسديد ضرائبه، وقُتِل أخواها بعد شغب الإحصاء عندما خرجوا

في حشد ضد قرار الحاكم بالإحصاء العام للضرائب، فخرجت الفتيات للعمل، لم يكفهن طعام الحقل الذي يحضرنه كل مساء من أجل الجميع، كانت تتسلل من وسطهن في المساء وتفتح النافذة الوحيدة لديهن وتهبط منها وتتركها نصف موصدة، وضعت البرقع على وجهها وجلست في زاوية السوق بجوار بعض النسوة اللاتي ارتدين البرقع على وجوههن وغطاهن الليل في انتظار العابر القادم من السفر في طريقه لزيارة الهيكل، لم تميز بين الروماني واليهودي وإن فضلت الأخير حتى أتى إليها ذات ليلة، لم تميز وجهه لكنه لم يكن مثل الآخرين، فقبل أن يغادر ترك لها خاتمه ورحل، انتظرته أن يعود مرة أخرى لكنه لم يفعل، مر موسم الحصاد من دون محصول لقدوم الجفاف، طالت إثارة الأخضر واليابس، كانت تخرج في وقت الغروب وعندما اشتد القحط خرجت في وقت مبكر حتى تعود بطعام يكفى الجميع، حاول شقيقاها الحصول على عمل في السوق لكنهما لم يفلاحا.. خرجت معها بعض شقيقاتها، مرت الأشهر ولم يعد، شعرت بالحنين إليه، شاهدته من بعيد، عرفته من ظله، سقطت بجوار السوق مغشيا عليها، مر شهران وعلمت أنها حامل.. كانت تعرف من مر عليها لكنها أرادته هو، لذا بعد مضي تسعة أشهر أرسلت له خاتمه مع إحداهن ليأتي إليها فقد اختارته أبا لولدها.... لم تهنأ بغرفتها الواسعة والولدين كثيرًا، فقد قرر بيع ما يمتلك والانضمام لجماعة الجبال والسكن معهم، فقد سمحوا للبعض منهم بالزواج وارتدوا اللباس من التيل الأبيض وحملوا الفأس معهم لا للزرع وإنما من أجل إخفاء فضلاتهم بعد الانتهاء منها، فالتبرز لديهم من أعظم الكبائر!!....

٥

بعد إنجاب الولدين كان ينام في الطرف الآخر من الأرض وفى وسطها الطفلان، لم يعد يقترب منها، كانت تنتظر قدومه يومًا ولم تيأس لكنه اكتفى من الصغار ولم يعد يبحث عن مزيد منهم، كان يخرج ليمكث في الجبال أياما طويلة ينشد الوحدة والتأمل، لم يكن يتناول الطعام لأيام.. كان كلما اشتد الجوع به يبتسم تقرّبًا من صاحب الشريعة، كان يعلم أن عليه تحمّل الكثير الآن من أجل أن تبقى روحه دائما.. طالت مدة بقائه في الجبال ومرت الأشهر ومضى فصل جني المحصول سريعًا، كان الجوع يشتد والضرائب تزداد، لذا لم تعد تجني المال من الجلوس في الساحة بالقرب من بعض المعوزين في انتظار حسنة من يأتي ليقدم قرابينه خاصة من تجار وأغنياء قيصرية.. فى يوم عند حلول الغروب سمعت خطوات وطرق.. هرعت ناحية الباب تنتظر عودة الغائب لكنها وجدت آخر.. أقل منه طولا.. عريضًا لم تتبين ملامحه، سألها عن العلية، كان مسافرًا قادمًا من طبرية في موسم زيارة الهيكل وتقديم القرابين، كان يوم عيد الكفارة في اليوم التالي.. أخرج لها ثلاثة دراهم خبأتها سريعًا حول وسطها وأرشدته إلى السلم الخارجي حتى يصعد لغرفته في الأعلى.. كانت العلية هي حل الفقراء في مواسم الأعياد عندما يقدم من البلاد المجاورة الزائرون إلى الهيكل.. ابتسم، في الصباح ابتاعت حمامتين لتقديم نذورها المتأخرة ثم ابتاعت أخرى وصنعتها جوار الفريك، ابتسم لها ابنها الأكبر "يوحنان"

وهو يتناول طعامه، في الليلتين الماضيتين اضطر لترك الطعام لأخيه الأصغر، كان سعيدًا في موسم جني الكرم فقد استطاع أن يحصل لهم على بعض منه من دون أن يلاحظه أحد من العاملين في الحقل وتهريبه إلى البيت، وبه استطاعوا أن يتحملوا الجوع بعد أن مر المحصول، كان يوحنان يخرج إلى السوق ويسير بمحازاة البائعين، وعندما يرى تجمعًا حول بضاعة يدخل وسط الحشد ويسرق بعضه ويركض، حتى اكتشفه الباعة فلم يعد يستطيع المرور من بينهم... كان الزائر تاجرًا من بعيد، يأتي قبل الغروب كل ليلة ويلمح حنة وهي جالسة جوار النافذة تنتظر صغيرها ليعود من السوق، نفد الدرهمان فسعدت عندما طالت مدة بقاء الزائر، وبدأت تلاحظ عينيه، انتظرت الغائب في الجبال فلم يعد، مرت الأشهر فيئست من عودته ثانية، دعاها الزائر لعليته فاستجابت وصعدت له.. تعلقت به، أخبرها عن عائلته وزوجاته هناك في مدينته.. عن تجارته التي ورثها عن عائلته، أرادت أن يسألها أن تأتي معه لكنه لم يفعلها.. لم يكن مسموحًا لهم بإغلاق أبواب بيوتهم قبل المساء، برغم أنهم كانوا فقراء إلا أنهم لم يستطيعوا مخالفة عاداتهم.. فقد فتحوا بيوتهم للزائر والسائل في الطريق ماعدا المساء فيوصدون أبوابهم ولا تعود تفتح لأحد مهما كان.. لم تسمع الأفواه التي أخذت تتحدث عنها ولا الأعين التي تراقبها، عندما أتاها زائران وطرقا بابها في المساء رفضت أن تفتح لهما الباب لكنهما قالا إنهما أيضًا يملكان الدراهم فقط إن فتحت، لكنها أحبت الغريب فزجرت السائلين وأخذت تصرخ فهربا في الظلام الدامس.. في الصباح اقتحمت أرجل بعض منفذي الشريعة فأخذوها من بيتها.. حاول يوحنان جذبها من

يدهم فأبعدوه عن الطريق وسقط جوار الحائط، كان يصرخ عليها فيما تحلقت النسوة من خلفها وهي تعبر الحارة يقذفنها بالطوب ويلعنّها بالمسبات.. جروها حتى ساحة الهيكل وألقوا بها في أحد أروقته.. سمعت النسوة يتحدثن من حولها.. سمعت الشهود رجال حارتها وهم يحكون ما شاهدوه منها.. لم ترفع نظرها للقاضي الذي سيحكم عليها بالموت، كانت تعلم أنها بضع دقائق وسيحملونها إلى خارج المدينة ويلقونها في حفرة واسعة وتضرب بالحجارة حتى الموت.. أوصالها ترتعش لكنها ثبتت، لم تكن تبالي، الغريب سيرحل ولن يعود ثانية، لا لن تعود لحياتها الأولى من دونه، لم تعد تحتمل الجوع، لم تعد تحتمل عري صغارها وسرقتهم لطعامهم حتى لا يموتوا جوعًا.. نطق الحكم.. غطت رأسها من البصق الذي كان يأتيها من النسوة حولها، فيما همّ الرجال بجرها على الأرض.. كانت تسمع الصراخ.. ظنته صرخاتها هي، لم تعد تتحمل الألم، لِمَ لا يقتلونها في سرعة؟ لمَ عليها تحمّل مزيد من العذاب؟ وجدت نفسها ملقاة على الأرض؟ حاولت أن ترفع رأسها.. كان الكل يركض من حولها.. سمعت الصراخ من ناحية الهيكل والكل يركض من حولها.. حاولت النهوض.. سقطت.. كادت أن تُدهس من الأقدام لكنها تحاملت على نفسها.. لمحتهم من بعيد بعباءاتهم السوداء.. شاهدت الخناجر ترتفع والدماء تسفك من حولها، ركضت بعيدا.. أوقفها خنجر وجذبها من يدها.. أبعد عنها بقية الخناجر.. لم تعانده.. جذبها ووضعها على حصانه وركض مسرعًا وسط الأجساد التي تكومت على الأرض من حوله...

استيقظت المدينة في عيد الحانوكا عيد تجديد الهيكل، توافد الزائرون على المينوراه في الفناء الخارجى للهيكل، أوقدت بالزيت في شعبها السبع.. بدأت حركات ذوي العباءة السوداء تقتحم الفناء الخارجي قادمة من أروقته الخمسة.. كان الاحتشاد يزداد حتى انتصف النهار فقام رئيس ذوي العباءات واقفًا جوار المينوراه فجزع الزائرون "أبلغوا بيلاطس أننا هنا ولن نرحل قبل أن ينفذ ما جئنا لأجله... لقد أرسلنا المسالمين من قبلنا للقائه لكنه لم يستمع، والآن فليعلم أننا لن نغادر أو أي أحد منا ومنكم هنا قبل أن يرحل ذلك التمثال وهذا النسر من فوقه بعيدا عن هنا، فليعد به إلى قيصرية مدينته وإلا ما سيحدث سيكون من مسئوليته هو لا نحن".

كان عازر يقف من بعيد في أحد الأروقة التي كلف بحراستها ومنع عبور أحد منها، منذ شهور عندما قرر الهرب من وجه سيده والذهاب معهم حيث كهوفهم لم يرَ وجهًا غريبًا في وسطهم، كان العضو الأحدث لذا تحمل في صبر الاختبارات التي وضعت للتأكد من قوته وشجاعته عند القتال، حقا هو لم يقاتل من قبل لكنه تعلم في سرعة أثارت معلمه داخل المجموعة، كان إسخريوطيًا، كان هو وشباب عائلته تحت لواء الغيور، بل كانوا مع "حزقياس" والده قبل أن يقتل ويكمل ابنه ما بدأ، في الأشهر القليلة الماضية كانت مهمتهم إيجاد كهوف مناسبة قاموا بحفرها خارج المدينة بعيدًا عن أعين الحاكم وحراسه، ولكنه قرر أن ينقل قصره من قيصرية إلى أورشليم، بل نقل معبوده معه ليلا أيضًا، لذا قرر الغيور الهبوط بنفسه تلك المرة بل إن فشل الشيوخ في إقناعه بالعدول والعودة إلى مدينته التي شيدت لأجل إمبراطوره لكنه طردهم ولم يستمع. خرج أرخيلاوس مسرعًا

من الباب الخلفي الخاص بالكهنة قبل أن يسرع الغيورون بإغلاق البوابات، ركض مسرعًا بين الأروقة منتهزًا أن لا أحد يراه وسط الخوف، لكنهم لمحوه، كان عليه أن يرحل في الظلام مسرعًا فالرحلة من أورشليم وحتى قيصرية حيث بيلاطس تستغرق أربعة وقفات لن يستطيع أن يصبر وعليه عبورها، أرسل في طلب الكهنة من طائفته حتى يسرعوا معه إلى قصر الحاكم، وعند غروب اليوم التالي كانوا واقفين أمام بوابة قصره، لم يسمح لهم الحرس بالعبور.. علموا أن أخبار ما حدث في الهيكل قد وصلته.. كان أرخيلاوس الصدوقي يكره الدماء، لذا أرسل في طلب طائفته لتعاونه أمام الحكام قبل أن ينفذ وعده السابق ويقتحم أورشليم ومعه حرسه.. كان الحفاظ على الهيكل أهم لديهم من الحفاظ على من فيه، تدميره يعنى تدميرهم والشريعة، حدث ذلك في الماضى لكنهم الآن يتعاهدون مع رئيسهم الكاهن الأعلى بالحفاظ على الهيكل طالما هم أحياء فيه.. قسم يتداولونه وممنوع الحنث به وإلا استوجبوا الموت.. جلسوا وصاموا أمام بوابته.. حاصر الغيورون الهيكل ستة أيام.. توقفت أنفاس أورشليم منتظرةً قدوم الحاكم وحرسه.. جمع أصحاب المال ما استطاعوا وابتعدوا إلى الجليل في جنح الليل.. أغلق الفقراء بيوتهم ودكاكينهم حتى لا يشملهم العقاب القادم، ولم يستطع أحد الخروج من البهو الخارجي صغيرًا كان أم كهلاً أو حتى امرأة.. في نهاية اليوم السادس حضر الحراس فانحبست أنفاس الأهالي واستعد الغيورون بأسلحتهم.. لكن الأوامر لم تعطَ بالقتال بل تم إنزال التمثال والنسر حملوه معهم إلى قيصرية.. فتحت البيوت والأسواق.. فتح الهيكل أبوابه وتوافد الزائرون يوقدون قناديل

الزيت ويذبحون النذور في الساحة المخصصة.. تزينت النساء وخرجن للهيكل كما في أيام العيد احتفالا بسماع صاحب الشريعة لصوت استغاثتهم وعودة الحاكم لبلدته...

رحل السيد الصغير بومبي، وقفت ثيودورا تراقبه وهو يرحل من الأعلى، رمقها بنظرات قبل أن يصهل حصانه ويركض مبتعدًا عن القصر، كانت تيبي تراقبها من بعيد، لم تستطع أن تتحدث إليها والسيد هنا، كانت فرصتها الأخيرة الليلة قبل المساء، لم تكن لترحل قبل أن تودعها.. انتظرت حتى انتهت الواجبات التي كلفن بها من السيدة، اقتربت تيبي من ثيودورا التي عادت للنوم في غرفة العبيد بعد أن تركها السيد الصغير.

سأرحل؟

انتبهت ثيودورا وهمست: يوساف؟

نعم ولا.

حملقت ثيودورا بها فأردفت تيبى: استمعي.. لا يمكننى تركه، إذا بقينا هنا في أورشليم فلن أتمكن من أن أكون معه، سأرحل هناك نحو الجليل.. لديه تجارته هناك.. هناك سأبقى وأنتظره.

كيف سترحلين؟.. ستهربين؟ ولأجله؟ لأجل من لن يبقى معك؟ ألم يخبرك من قبل؟ قاطعتها تيبى: استمعي ثيودورا، لم يعد بإمكانى تركه، هناك ما يربطني به الآن.. أعلم أن آلهته لا تحبني ولكن إذا عرفتها ربما

يقبلني لديه.. إذا بقيت هنا سأظل عبدة وسيعاقبني السيد إذا علم بحملي وسيوقع بي عقاب الموت..

تيبي ولكن كيف سترحلين ؟

غدًا سأرحل، السيدة سترسلني لأحضر الأقمشة القادمة من الإسكندرية إليها.. لن أعود.. ثيودورا.. لن أنساكِ.. إذا تحررتِ يومًا تعالي إليّ هناك بالجليل، سنعيش وسطهم ولن يعرفنا أحد.. ابتعدت عنها، ظلت ثيودورا ساهدة.. حرة منذ ولدت عبدة فكيف سأتحرر؟ حتى سيدي الصغير رحل ونسيني.. أخبرها ميترواديس عن سبارتكوس وهي صغيرة، تمنت لو رأته وأحبته، ربما تحررت معه وتزوجا.. حزنت عندما علمت أنه مات لكن بسببه يعيش العبيد أفضل.. أصبح لهم الحق في الزواج بموافقة السيد وربما أطلق سراحهم.. لم يعد هناك موت من دون قانون وليس برغبة السيد..

٦

تقدم "شماي" بخطوات واسعة في يومه الأول باتجاه الهيكل، صعد الدرج مسرعًا، كان قلبه يخفق بشدة وهو على بعد خطوات من بهو الكهنة، كان يشعر بالزهو فاليوم أكمل العشرين من عمره وهو أكبر إخوته التسعة، كان ابن كاهن وفى طريقة ليصير كاهنا لن يفعل مثل ابن عمه الذي صار خزيا للاوي عندما هرب وتزوج من جليلية وصار يبخر في جبل جزريم.. كان فخورًا لأنه ولد صحيحًا بلا عيب ويحفظ الوصايا منذ الثانية عشرة من عمره.. فكان يقف وسط المجمع يسأله المعلمون وهو يجيب.. تلوا عليه الصلوات داخل الصحن ووضعت عليه الأيدي لمباركته. كان والده يقف وسط الكهنة يشعر بالفخر لكون ابنه الأكبر سيكمل مسيرة لاوي ويكمل سلسال الكهنوت، كان عيد الفصح يقترب وسيكون العيد الأول الذي يقضيه في عمله الكهنوتي ويتسلم القربان ويقوم بذبحه وتقديمه محرقة لصاحب الشريعة.

كان يغمض عينيه بقوة، لا يعلم لمَ كان يرى تلك الأممية بوجهها يلوح من أمامه والأيدي توضع عليه.. كان عليه أن يطلق تلك الروح التي تحاول المساس به وتدمير روحه، راقب ابتسامة والده وبادله إياها.. صعد درجات أعلى حتى اقترب من الستار المقدس الذي يفصل عن قدس الأقداس يطلب مباركة أرخيلاوس رئيس الكهنة، وعلى مدى سبعة أيام

تالية كان عيد الفطير ويستخدم الخبز الخالى من الخمير. لم ينسَ وجه الأممية وهي تركض خلف سيدتها حاملة الأقمشة الخاصة بها. تلا صلواته يطلب الغفران وأخفى دموعه خوفا من أن يراه أحد من الكهنة ويظن به أنه ينجس الهيكل بقدومه إليه.

لم تتخلّ عن لقبها "أم يوسف" رغم الوقت الذي مر والصبية الذين أنجبتهم، فقد ظلت تبحث عنه وتقيم نذورها وصلواتها بحثا عنه، تمنت لو لم يخرجا ذلك اليوم، كرهت أصحاب الخناجر وكل قطاع الطرق، كانوا مسئولين عن ضياع ابنها.. زوجها قال إنه قتِل مع والده وعليها أن تنسى- لكنها لم تستطع أن تفعل.. حاولت أن تقتنع أنه مات لكنها لم تستطع.. تعلم الآن أنه ربما يصادفها أحد في الطريق يعرفها ويخبر زوجها.. تعلم عقابها.. تسللت في جنح الليل في ذلك الطريق الطويل القذر وتحملت أن يخرج عليها قاطع طريق.. طرقت الباب.. تنفست الصعداء عندما فتح ودخلت مسرعة.. أخرجت صرة المال للسيدة العجوز.. أشارت لها أم يوسف: هل يمكنني أن أرى ماريا؟ أجابت العجوز أنها تصلي الآن وغير مقبول الدخول عليها، ولكنها تركت لكِ تلك الرقية تقول إنها ستعيد إليكِ الولد ولكن اصبري.. أخذته منها وأخفته في ملابسها على عجل.. همست: آه لو علم زوجي أنني أتيت لرؤية ماريا المشعوذة، سيوقّع ورقة طلاقي ويتطهر لأنني لمسته...

ارتدى اللباس الأبيض من الصوف.. اقترب رئيس الكهنة ومسحه بالزيت، وقف بهو التقدمات ليقدم منها ثلاثة.. ثورًا وكبشين.. مزج الزيت بدم الحيوان الثالث.. مد رئيس الكهنة يده يمسح بها أذن شاي اليمنى وقدمه اليمنى.. ثم دهن يديه وفخديه بمزيج من شحم الكبش.. وما تبقى من الذبائح ألقي في محرقة الهيكل تقدمة..

ارتفع لبهو الكهنة.. تقدم جموع صلاة الغروب "مبارك أنت أيها الرب إلهنا، إله آبائنا، إبراهيم وإسحاق ويعقوب، القدير، المتعالي، الذي يظهر رحمة وإحسانًا، وخلق كل شيء، الذي يذكر أعمال التقوى التي عملها آباؤنا ويشاء بمحبة أن يأتى بمخلص لأبنائه من أجل اسمك، اسمع أيها الملك، المعين.. المخلص.. الترس.. مبارك أنت أيها الرب ترس إبراهيم" فيردد الجمع من خلفه "آمين".

أغلقت العجوز أبوابها جيدًا، يأتي المساء ويحمل معه الخوف القديم.. ماذا إذا اكتشف أحد أمرها أو تعرف عليها؟ ستعود مطاردة من جديد، لكنها لم تعد تحتمل الهروب، سيمسكون بها وتحاكم هذه المرة، كل ليلة ترى نفس الحلم وتستيقظ فزعة من الظلام، تركت مصباحها مضاء جوار فراشها طوال الليل خوفًا من ضيف ثقيل يأتي ليقبض روحها في المساء، تعود لتغمض جفنيها "ماريا.. ماريا.. هيا اخرجي واجمعي الكرمة مع أمك" تبتسم لوالدها وتركض نحو أمها تساعدها في جمع الكروم من حقلهم.. منذ أن استيقظت للمرة الأولى في هذا العالم وجدت نفسها محاطة بالكروم في

بيت كبير مكوّن من ثلاثة طوابق تعيش بداخله العائلة، في الأسفل يعيش جداها وهم يحصلون الطابق الثاني، أما عمها وأولاده ففي الثالث.. تنتظر العيد فيقوم والدها وأخوها بذبح الخروف، ووضع أيديهما عليه، كانت العلامات توضع على عتبات البيوت، قيل لها إن هذا هو ما حمى الأجداد من موت البكور، فتجلس على طاولة منفردة مع إخوتها العشرة وأبناء عمومتها العشرة الآخرين على طاولة أخرى ليتشاركوا في خروف الفصح، وكلما تذكرت ذلك الخروف الذي كانت تراقبه لأشهر وتلقي له بحبات الكرم وتهرب تتخيله يبتسم لها، يوم ذبحه جلست تبكي في غرفتها، وبختها أمها وهددتها بالعقاب إذا رآها أحد تبكي مجددًا.. صمتت، خافت أن تزوجها مثل شقيقتها الكبرى من صاحب حقل كرمة بجوارهم أتى ذات صيفية وتزوجها مع حلول وقت الحصاد فى يوم أربعاء.. وكانت تبكي، لم ترِد أن تترك إخوتها، أرادت الركض واللعب وسط أزهار الحقل وجني الكرمة معهم.. ابتسمت لها أمها: سيكون لك غرفة بمفردك وحقل مخصص، وسنأتي لنراكِ هناك، هيا يا ابنتي لا تخذلينا وتعكري صفو أبيكِ وجدك.

أمسكت الصبية عن البكاء.. احتضنت ماريا فقد كانت المقربة لديها بشدة، وعدتها ماريا أن تأتي إليها ويقطفا ثمار الكرم معًا لكنها لم تأتِ ولم تنفذ ماريا وعدها.. فقد رحلت الشقيقة بعد شهور، بعد شهور اكتشف والداها أن ذلك الزوج لا تعيش له زوجات.. كانت الفتاة السابعة التي يجدونها ميتة في فراشها في اليوم التالي صباحا، استشاط والدها غضبًا

وذهب للقاضي ليقاضي الزوج الذي كذب ولم يخبرهم بذلك من قبل وأبطل عقد الزواج... كبرت ماريا وعلمت أنها مجرد شيء ليس له الحق في الحديث، تصمت أمام الرجال.. والدها المنوط بزواجها.. لم تشعر بالغضب فهي تحب أباها، لكنها كرهت عمها لأنه طلق زوجته التي تحبها لأجل إحراقها الطعام على الموقد.. هكذا قال الرابي له إنه يحق له طلاقها فأعادها إلى إخوتها وأرسل لها كتاب طلاق وأتى بأخرى شابة كانت تكره أمها وكادت أن تتسبب لها بالطلاق بعد أن أضرمت النيران في موقد الطعام وكاد البيت أن يشتعل، غضبت ماريا من أبيها الذي لطمها عندما رفعت صوتها بالحديث لتبرئ أمها وصرفها كعقاب لبيت أخوالها، فمكثا هناك بالأشهر حتى قرر والدها مسامحتها وفوجئت بهما يعودان إلى البيت في ذلك الصيف وطلب منها أن تعد نفسها جيدًا للضيف القادم.. رأته طويلا وعريضًا أبيض اللون فهمست من أين هو؟ قيل لها: من أورشليم، لكنه سافر صغيرًا مع والده إلى المدن الخمس الغربية من أجل تجارته وأحداث الفوضى التي حدثت منذ فترة.. في ذلك المساء علمت أنها ستتزوجه بعد أن وافق عليه والدها، أخبرتها أمها أن عليها أن تتجهز فستغادر في نهاية الصيف مع زوجها، شيء بداخلها فرح رغم الحزن، اعتقدت أنها المفضلة لدى والدها وسيبقيها إلى النهاية لكنه لم يفعل، أحب إخوتها الصبية أكثر من الجميع.. حتى أمها.. فى ذات صباح وضعت في قافلة كانت تجلس في هودجها في مقدمة القافلة ومعها بقية النساء والأطفال أما زوجها والرجال فكانوا في نهاية القافلة خوفا من هجوم قطّاع الطرق عليهم في أي لحظة.. أخبار الغيور كانت تطير في كل مكان ورعب

أصحاب الخناجر قد دب في القلوب.. أخذها إلى الهيكل أولاً بقصد التبرك، صعدت من خلفه في بهو النساء وقامت ووضعت تبرعها بالصناديق الثلاثة التي كانت تشبه الأبواق.. ووضعت ثمن الحمام وأخرى تبرعًا للهيكل، أرادت من رب هذا الهيكل أن يقف معها في حياة مجهولة مقبلة عليها.. تقدمت القافلة للخروج من مدينة أورشليم في طريقها إلى الخمس مدن الغربية حيث كان يعيش الفتى وعائلته، أبوه وأمه الكهلان لم يعودا يقدران على السفر، لذا فضلا العيش هناك حيث الأرض الغريبة عنها، لكنه لم ينسَ قبل الخروج من المدينة أن يشتري لهما المدفن حيث طلبا أن يدفنا فيها.. كان الوقت وقت غروب والقافلة تعبر من البوابات وتخرج حيث الصحراء تقطع طريقها على ضوء المصابيح الخلفية التي أوقدها الرجال من الخلف.. لاحظت الإضاءات التي تأتي وتنقطع من الأمام لم تفهم.. فى ثوانٍ خرجت أمامها عباءات سوداء هاجمت القافلة من الأمام.. صرخت باسم زوجها، دفعت بقدمها بقوة الأيدي التي أمسكتها من وسطها وحملتها بعيدًا، كانت تسمع صوت صراخ النساء والأطفال قبل أن تفقد الوعي..

وجدت نفسها محاطة بزوجي عيون تحملقان فيها، استدرات لتنهض في فزع، حاولت الابتعاد لكن العيون هدأتها، كان بيتًا من الخوص، هكذا هي بيوتهم، عندما خرجت مع نساء القافلة ليقفن في منتصف الساحة أمام إحدى الخوص.. نظرات من حولها أخافتها، الدور حل عليها، حاولت أن

تخفي ارتعاشة جسدها، قيل لها إنها تقف أمام حزقياس فلتتأدب، سمعت بهذا الاسم من قبل، في العام الماضي سمعت صوت صراخ في الليل فقامت فزعة، أوصدت النساء أبوابهن جيدًا، سألت عن أبيها، شاهدت أمها تجلب ما تستطيع حمله وتضعه مع زوجة عمها حول الأبواب، ساعدتهم وهي لا تفهم، من بعيد شاهدت نيرانًا، ركضت نحو النافذة لتفتحها، لمحتهم من بعيد، كان هناك رجل ضخم الجثة لم تتبين ملامحه على صهوة جواده ومعه رجال آخرون، رأت والدها وعمها وحتى جدها من أمامهم، كان يركض أمام الجواد في خوف، سمعت أباها ينادي على نساء البيت ويطلب إخراج الطعام المناسب للضيوف.. سألت أمي زجرتني بعينها..

ذبحت من خلفها.. قام أبي بذبح كبش وقمنا بإعداده جيدًا كما نفعل في يوم العيد، همست لي أمي "أخرجي لهم الطعام" سمعت لكلمتها وحملت الطعام وأخرجته بالدور، أشار لي والدي حيث الرجل الذي كان على صهوة جواده هناك يجلس في منتصف رجاله.. قدمت له الطعام وشراب الخمر أولاً.. ثم قدمت للرجال من حوله.. في نهاية الليل حمل أبي لهم صناديق الخمر والكرمة الطازجة وبعض الماشية لهم.. رحلوا قبل الشمس.. كانت ملامح صاحب الجواد انطبعت في عقلها، لا تعلم محبة أم خوفًا لكنه أيضًا حفظ ملامح وجهها.. عندما نظرت إليه شعرت بالخوف، كان وجهه يخيفها في ذلك الضوء الخافت.. اقترب منها، وضع يده على خدها يتلمسها.. كان يبتسم لها.. أمسك بيدها وسحبها فاستسلمت وجلست بجواره على فراش وثير لم ترَ مثله في بيت أبيها الذي امتلك الكرم.. رمى عباءته عليها...

علمت في الصباح أنها انضمت إلى زوجاته، كانت له أخريات لكنه أبقاها معه في كوخه، علمت أيضًا أنه لم يفعل هذا مع الأخريات.. لم يتركها سوى ليخرج مع رجاله لقطع الطرقات، قال لها إنهم يفعلون هذا لخدمة الهيكل بعد ما نجسه الكهنة والشعب بالأمم وقبولهم، وأن ما يفعله هو السبيل الأخير للخلاص وإلا هلك الشعب بأكمله. كان يعود ومعه جريح فتخرج عجوز من وسط نسائه تستخدم الأعشاب لتداويه، كانت تجلس بجوارها حتى أصبحت تخرج معها وسط الحقول المؤمنة من رجال زوجها، علمتها العشب والنبات، وأسرار الطب، خبرت معها مزج الأعشاب بالرقي حتى أجادتها، فرح حزقياس فقد كانت العجوز على وشك الرحيل، زادت حظوتها عندما صارت طبيبة الغيورين، ذاع صيتها وسط النساء فقد كانت تأتي إليها النساء من المدن مجازفات أن ينكشفن أو يغويهن أحد من رجال الغيور فتترك بيتها وأولادها وتبقى معه.. فتصنع لها أعشابًا من أجل أن يحبها زوجها ولا يتزوج عليها، وأخرى حتى لا تُطلق وأخريات حتى يصير النحس في بيوت عدواتهن وأعداء أزواجهن.. ذاع صيت ماريا فعم أورشليم.. وسرعان ما وصل خبرها لثريات القوم وأتين إليها من مختلف المدن المحيطة وسمح لها بالخروج من الأكواخ لزيارة المريضات في بيوتهن والعودة إلى الأكواخ مرة أخرى.. حتى وصلت لبيت زوجة رئيس الكهنة وأثرياء الأمم فأصبح لديها الكوخ الخاص بها تمنح ما تريد وتحجب عمن تريد.. كان خطؤها عندما وقفت في السوق وكشف برقعها، وأصبحت معلومة، كانت تسمع ثرثرة النساء تلك زوجة حزقيا س، كانت تعلم أن الحاكم صار يكرهه بعد أن قطع الطريق على إمدادت جنوده وقوافل

المحصول التي خرجوا بها من المدينة باتجاه الميناء، لم يكن مسموحًا لها بمجادلته حتى وإن صارت طبيبة، لم يدعها تنسى أنها في النهاية امرأة، مجرد امرأة من كثيرات يمتلكهن ولا يجوز لها أن ترفع وجهها وأن تتحدث إليه في الذي لا يريد..عرفت الكره بعد الحب.. لا تعلم إن كانت أحبت حزقياس أم كرهته.. اعتادت على وجوده، لم تعرف زوجها الذي فر هاربًا بحياته من أمام الخناجر وتركها، عرفت صاحب الجواد وأعطاها كوخا خاصًا بها ومن يخدمها، ميزها عن الأخريات في بيت أبيها، كانت زوجته هي المميزة، كانت تنهرها أمها عندما تقترب منها وهي تبكي، لم يكن مسموحًا لها بالحديث، لم تكن زوجة رئيس الكهنة حتى لا يتزوج عليها..

٧

كان الوقت منتصف الليل، كانت في كوخه حينها لكنه لم يكن هناك، انتظرته أن يعود لكنه تأخر كثيرًا تلك المرة، حتى غفت واستيقظت على صوت صرخات، خرجت مسرعة، كانت النيران تلف الأكواخ من حولها، خرجت مذعورة، كان حرس الرومان يحرقون ما تقع عليه أيديهم.. حاول النسوة والأطفال الهرب لكنهم احتجزوهم واحتجزوها معهم.. رُبطت يدها بالحبال وسارت خلف أحصنتهم، مرت على الأسواق وألقت النساء اليهوديات عليها بقايا الطعام، كانت تسمع صوت الصراخ.. ساحرة ملعونة.. ارجموا الساحرة.. هي الخراب اقتلوها نفذوا الشريعة.. حاولت بعض النسوة الاعتداء عليها لكن الحرس أبعدوهن عنها.. علمت أن الحاكم تمكن منه في الأشهر الأخيرة، علمت أنها النهاية، الكل يعلم بكره الحاكم له بعدما وقف أمام قوافل الرومان وأزعجهم وأزعج سلطان الحاكم الذي أجلسوه على كرسي البلاد وملكوا أولاد من بقية البلاد المجاورة.. أرادت أن تمنعه زجرها بلطف.. كانت تعلم أنها المفضلة لديه.. حتى وهي تنتظر قرار المدعي الروماني عليها بعد أن اتهمَت بممارسة السحر والشعوذة وانتظرت الموت لم تكن تعلم أنها أحبته أم ظلت أسيرته المفضلة.. لكن القانون الروماني في النهاية حكم ببراءتها.. لكن الكل أراد رجمها.. ابتسمت، منذ سنوات لم يتفق اليهود والأمم والآن اتفقوا معا على وجوب قتلها هي!!.. كانت تعلم أن الموت ينتظرها خارج زنزانتها، فتحت الزنزانة فرأته، تقدم منها ذلك الحارس

الروماني، كانت تعلم أنه موعد موتها، قانون الرومان لا يسري وسط العامة.. ارتدت برقعها وشالها وسارت خلفه.. لكنه اتبع مسارًا خلفيًا.

اتبعت "كورثوبانوس"، لمحته مع القاضي الروماني وهيئته، رأت زوجته الكساندرا.. تذكرت أنها عالجتها من الحمى سابقا فتشفعت لها لدى زوجها الذي جلبها لينقذها من هجمات العامة عليها فور خروجها من محبسها بعد أن تجمع عدد منهم بانتظارها في الساحة.

فتحت الأبواب، قبّل الكاهن "شماي" التميمة، ردد "اللهم احرس خروجي ودخولي من الآن وإلى الأبد"، لقد مر ثلاثون يومًا منذ أن ثبتها في بيته، لم يكن يتخيل أنه سيترك بيت أبيه ولكن أباه هو من اختار لأجله العروس من بيت لاوي فطلب أن يقيم معه، كان من حراس الهيكل لكن والده أصرّ عليها، وتعجب شماي الذي توقع أن يحاول أن يزوجه من ابنة أحد الكهنة لديه وليس من حارس للهيكل حتى ولو كان من لاوي.. حمل زقة لحفظ المال حول وسطه واستعد للذهاب للهيكل لتقدمة الصباح.. كان اليوم مساءً لديهم اجتماع للقضاء.. لقد أمسكوا بفتى قاطع طريق بعد أن حاول الهرب وسط الزحام بعد أن أصاب رئيس المجمع المحلي الذي حكم ضد أحد حملة الخناجر وطلب من الأهالي تجنب الحديث عنهم لأنهم أشرار.. فصدر الحكم ضده من الغيور، لم تكن المرة الأولى، فمنذ أشهر يتعرض رؤساء مجامع للقتل على أيدي حملة خناجر لكنها المرة الأولى التي يُمسَك فيها أحدهم، كل الأعين ستحيط بالمجمع الرئيسي اليوم.. كان يستمع

لأصوات المارة طوال الطريق.. المدينة ستجتمع حول الهيكل اليوم والحكم سيكون على الجميع.. مندوب الحاكم الروماني سيحضر المجمع.. كان عقل شماي مجهدًا من التفكير، ماذا إذا حكم رئيس الكهنة وهو الصدوقي ضد الغيورين؟ هكذا سيعلن تخلي الصدقيين عن الشريعة التي يقاتل لأجلها الغيورون ضد الغرباء..

كانت تهرول مسرعة حتى لا تلفت لها الأنظار بعد أن ودعت تيبي، تعلم أن سيدتها ستستجوبها لأنها المقربة منها، لكن عليها الصمت مهما حدث، لن تشي بصديقتها وتحكم عليها بالموت.. لم تكن منتبهة عندما اصطدمت به للمرة الثانية، تراجع مرتاعًا، الآن سيكون عليه التطهر ولن يستطع تقدمة صلوات الصباح.. تراجع شماي ولم يحاول النظر إلى وجهها بل أسرع يبتعد بعيدًا عنها وكأن مسًا قد مس جسده بأكمله...

خرجت مريم تتبع قطيع الماعز، تأكدت من أن عددها هو مائة ولم تضِعْ أي واحدة منها، فبالأمس كادت أن تفقد إحداها في الوادي السحيق، لكنها استطاعت إنقاذها في اللحظة الأخيرة، جلست تستمع إلى صوت الناي القادم من بعيد، صوت المزامير كان يتردد فشردت فيها وكادت أن تسقط إحدى معيزها في الوادي المنحدر، كانت تتجول كل يومٍ من شروق الشمس حتى مغربها تبحث عن قطعة أرض خضراء لترعى فيها الماعز.. زفرت عندما تذكرت أن عليها العودة مبكرًا اليوم.. كانت أصغر

أخواتها، لم يكن لدى والدها صبي.. كان يشعر بالخجل ويمشي منكس الرأس في الأسواق والهيكل لانه لم يحمل الصبي.. الكهنة أخبروه أن الرب غاضبٌ عليه لذلك لم يمنحه صبيا ليحمل اسمه، كانت أصغر الفتيات وكان لدى والدها الحقل فخرجت هي للرعي.. كادت أن تغفو عندما سمعت أصوات الأقدام ناحيتها انتبهت، لا لن تسمح لأحد الرعاة أن يأتي ليسقي قطيعه من هنا.. انتصبت واقفة تتطلع إلى القادم من بعيد.. كادت أن تتشاجر معه.. كان عريضًا وقصيرًا يأتي من خلفه قطيعه من الماعز.. عقدت حاجبيها: لا يوجد لك مكان هنا يا ابن مؤاب، ارحل فهذا الماء لي جئت من قبلك إلى هنا...

جلست وفتحت مزودها وأخرجت قطعة الجبن الخشن وحبات الزيتون.. تأكدت من وجود مقلاعها بجوارها.. كان الراعي يجلس بالقرب منها بعد أن وافقت أن يرعى فقط ولا يستخدم الماء.. كان "أنتيباس" المؤابي يشاهدها وهي تأكل من بعيد.. يعلم أنه لم يكن مسموحًا لها الاقتراب والحديث مع من ليس ابن آبائها.. عقدت حاجبيها وهي تستعد للرحيل.. عند باب البيت رأت الأرائك وهي تدخل إلى البيت.. الضيوف بالداخل.. استلقى الرجل العجوز على الأريكة وكانت رأسه بالقرب من المائدة مستندًا بكل جسده على أحد الكوعين فاردًا قدمه في استقامة وهو يتناول طعامه على الطاولة.. قدمت ووضعت الماء عند قدمي الضيف إكرامًا له.. ردد أبوها: مبارك أنت، الهنا، ملك العالم كله الذي أخرج الخبز من الأرض.. كان

الرجل العجوز جالسا على يمينه.. كانت ترمقه بغضب وهو يأكل من القصعة النحاسية المطلية بالقصدير.. أرادت أن تقدم له الفخار ولكنها ستتعرض للتبويخ وربما شعر والدها بالعار إن نجست ضيفه بالفخار.

منذ سنوات أتى هذا العجوز واصطحب أختها ورحلت، والآن يعود ليصطحب أخرى معه، همست أخواتها أن والدها لا يستطيع تركها لأنها من تستطيع فيهم أن ترعى غنمه، هي من تعرف كيف تتعامل مع رعاة الإبل والأغنام وتسقي غنمها وتعود دون أن تفقد واحدًا منها.. لكن العجوز تلك المرة طلبها ووالدها لن يرفض حتى يسدد ديونه لذلك التاجر العجوز...

سرحت وهى تسمع لصوت المزمار، لاتعلم من يخرج تلك الألحان العذبة، لكنها أحبت صاحب المزمار وأحبت ألحانه، بعد أسبوع ستنتهي مدة الضيافة وسيكون عليها أن تتجهز لترحل معه في قافلته المتجهة وراء الأودية، حيث الكروم والزرع، ستبقى هناك في بيت لا تعرفه مع زوجٍ ستراه هناك بعد أن تصل.. ربما أحبها وربما كرهها.. لكنها في النهاية لن تعود إلى هنا مرة أخرى، ستظل هناك حتى تموت وتدفن.. لن ترى قطيعها أو أخواتها.. منعت دموع البكاء فلم تعتد على إخراجها.. لم تلمح ظله الذي ظللها وحجب عنها ضوء الشمس.. انتفضت فزعة.. ابتسم لها.. زجرته: ارحل من هنا، لن تسقى إبلك من هنا.. هيا ارحل وابحث عن مكان آخر.. وقف الجليلي أمامها.. ابتسم.. لم يكن هناك سوى حصانه الذي قبع

خلف فارسه.. كان عليها أن تختار إما العودة إلى بيت أبيها أو أن تختار ذلك الفارس الذي قدم ليراها مرة أخرى وترحل معه.. فاختارت الرحيل..

رحلت إلى بيت "الحارث" في الجليل بعد أن اختارها له زوجة، كان بيتًا من عدة طوابق، كان لهما الطابق الثالث، لم تكن تخرج لترعى قطيعًا لديه، بل كانت تعمل على الرحى.. تطحن ما يكفي لأهل البيت.. كان الحارث الابن الأوسط لوالده، قيل لها إن جدهم العابد أتى من أرضٍ بعيدة وكان من الأهالي الذين ضاعت منهم فأتى إلى هنا مع جموع كثيرة عندما سمح لهم الملك البابلي فاستوطنوها، عاشوا فيها، رأت مريم وسطهم اليهودي والأممي، كان في الطابق الأرضي غرفة خصصت للآلهة وجدت بها "بعل" وسُمِح لها فيها أن توقد قنديل زيتها لإلهها.. كانت تقيم صلاتها في البيت في تلك الغرفة ثلاث مرات رغم أنها امرأة، ولم يكن لأحد أن يهتم إذا قدمت تقدمتها أو لا.. مرت سبع سنوات أنجبت له ثلاثة فتيان وفتاتين سُرّ بهما..

كان جد الحارث قد تهوّد في أيام المكابي، لكن بعد موته عاد إلى عاداته القديمة.. لم يعد هناك خوف في الجليل.. لكنها كانت تسمعهم يتذمرون في المساء عندما يجلسون قبيل الغروب على المصاطب الموضوعة أمام البيت.. كان العراك بسبب يهودي يقولون إنه قتل أمميًا، وخرج كثير من الأهالي إلى الحاكم فخرج البعض منهم لدى جبل جزريم لكنه لم يستمع إليهم.. كان نواح في المدينة، بكل بيت قتيل.. سمعت الحارث يشتم اليهود.. لم تستطع أن تحدثه، فضلت الصمت.. قتل شقيقه الأصغر رغم أنه كان

يضحي أمام جميع التماثيل المنحوتة ويذهب إلى رواق الوثنيين في الهيكل أيضا.. تغير لم يعد يحدثها.. لم يكن مسموحًا لها الحديث.. كان غاضبًا لأجل دم أخيه وكان أهلها هم سبب قتله من دون داعٍ.. الحارث كان مثل أخيه وأبيه لديه تماثيله وأيضا غير المنحوتة.. كانت له تجارته التي تصل من القيصرية وأورشليم حتى الجليل وغزة حيث بقية عائلته التي تحيا هناك منذ القِدم.. كانت تعرفها لأنها سمعت أن والدها قديمًا كان له صديق يحيا هناك من الفلسطينيين.. لكنه خشي بعد هجمات حزقياس من زيارته مجددًا وحتى بعد موته كان خوف أصحاب الخناجر قد دب في القلوب.. فقد قتلوا من اليهود من عارضهم.. كانوا كُثر كلما قتل الحكام منهم ازداد عددهم أكثر.. لم ترفع الغمة عن بيت مريم قبل أن يصل خبر رحيل الحاكم.. تنفست الصعداء.. ماذا لو لم يرحل وخرج زوجها وأهل المدينة ضده؟ ماذا لو ازداد القتال مع اليهود.. حتى نساء البيت تجنبن الحديث معها، كانت تجلس بمفردها على الرحى تطحن، لم يكن للرحى أن تتوقف، توقفها نذير شؤمٍ وخراب.. ذات صباح علمت أنه سيُحضِر امرأة أخرى.. حملت ذلك في قلبها وصمتت، لم يكن لها حق الحديث..

أسدلت البرقع على رأسها وآخر على وجهها.. تأكدت أن لا أحد يراها ثم أسرعت بين الحواري الضيقة، كان الوقت قبل الغروب، تعجلت مخافة أن يحل الظلام، إذا أغلق البيت ولم تعد ستُطلق ولن يدفع لها نفقة ولن يسمح لها برؤية أولادها مرة أخرى.. كانت أم يوسف تعلم كل هذا لكنها

لم تستطع أن تنسى- أن لديها ولدًا مفقودًا ولم يمت، كان الباب نصف موصد ينتظرها، دخلت بيت ماريا المشعوذة سريعًا، في المرة الأخيرة أخبرتها ماريا أن أعين الجيران تراقبها ونسوة الحارة يكرهنها ويقلن إنها سبب الخراب الذي يحدث كل فترة على رأس أورشليم..

أرادت أن تسالها عن رقية أخرى ولكن ضد زوجات زوجها، كان زوجها يكرهها، خافت من الطلاق.. لن تستطيع أن تبقى لتتسول أو أن ترفع برقعها في هذا السن.. سألتها عن عودة الغائب فأكدت لها أنها ستراه عما قريب..

رحل بيلاطس الحاكم وجاء بآخر لكن الحارث لم يعد قلبه لمريم، رحل عنها وصار مع أخرى، حتى أنه نبذ أولادها وأبعدهم عنه في المراعي البعيدة وأعطى أولاده الآخرين الحقول وقوافل التجارة.. اقترب العيد فطلبت أن تكون من القافلة إلى أورشليم، أرادت أن تذهب إلى بهو النساء بالهيكل وتقدم نذورها المتأخرة.. كانت تعلم بأمر ماريا اليهودية ولم يكن أمامها من سبيل آخر.. في الطريق تأكدت جيدًا أنها تخفي تماثيل زوجها معها..

٨

كورثوبانوس.. آه كورثوبانوس.. ليتك ما رحلت.. كرهت ماريا الليل فهو يزيد الأشواق ولا يبددها.. كانت تعلم أن عيون النسوة المحيطة بها ستظل تحاوطها تنتظر الفرصة حتى تنهشها كما فعلت مع أخريات وآخرين اتُهموا بالسحر فكان جزاؤهم الموت من العامة.. لم تكن ماريا تقدم سحرًا أو تعرفه.. ما عرفته فقط هو تسكين الآلام، مهنة أجادتها وبرعت فيها زمنًا.. أحبتها ولم يتركوا ذلك الحب يمضي ــ دون منغصات.. مثل حب كورثوبانوس.. لم يكن مثل حزقياس لم يجبرها.. معه علمت أن ما شعرت به من حزقياس لم يكن إلا خوفًا، لم تعرف الحب سوى معه.. معه لم تكن لتتهم بالزنى أو تُرجم، لم تكن لتخاف لأنه سيبقى معها ويحميها.. لكنها نسيت أنه حارس في النهاية، عندما يؤمر بالرحيل يرحل مع حاكمه إلى المنفى ليحرسه.. لم يكن ليتخلص من وفائه لسادته.. قال لها ألغازًا لم تعرفها.. لم تعرف سوى أورشليم والهيكل.. ما عدا ذلك لم يكن يهم.. كان هناك الكثير حولها من أنساب مختلفة لهجات وبطون.. لكنها انتمت فقط لبطن إبراهيم وأبنائه.. لم تحب ما عدا ذلك لكنها لم تهاجم أيًا منهم، لم تكن تهتم إذا رحلوا أو بقوا والرومان إذا رحلوا.. كان دائما هناك رواق لهم ورواق آخر لأبناء جلدتها.. ودائما ما كانت أروقة النساء في الخلف لذا لم تهتم كثيرا.. صنعت رقية.. سعدت صاحبتها واعتقدت أن الحظ معها، تزوجت وأنجبت وأخرى شفيت وأخرى وأخرى.. من تأذى؟ لا أحد.. لم

تقدم لمنحوت فلمَ لا يتركونها؟ لِمَ مُنِعت من صحبة كورثوبانوس؟ كان بيتًا في نهاية حارة اليهود الضيقة مكونًا من غرفة واحدة ملاذها الأخير.. لكن الأعين أصرت على متابعتها.. سمعت عن المخلص وانتظرته مثلهم، كان هذا الإعلان هو خلاصها الوحيد من أيديهم.. في منتصف الليل سمعت خطوات كثيرة تأتي وتركض.. سمعت عويلاً قادمًا من بعيد.. اقتربت لتسمع.. كانت أعدت نفسها سابقا ووضعت لها سلمًا داخليًا عكس بقية البيوت من حولها إلى العلية منها يمكنها أن تركض على أسطح البيوت المجاورة علها تنجو من أيديهم في النهاية، لكنهم لم يأتوا قبالتها بل مروا عليها صوب البيت الآخر في طرف الحارة.. كانوا جنودًا رومان.. سمعت صراخ نسوة البيت وهم يسلبونهن الصبية.. كان همس النسوة يرتفع باسم "ثوداس"، سمعت من أم يوسف أن هناك مخلصًا جديدًا ظهر في أورشليم وبعض البيوت الفقيرة تتبعه لكنها لم تعلم لِمَ يتبعه الرومان.. في الصباح أتت لها خادمتها، قالت لها إن "فادوس" الحاكم ذاته يريد رأسه.. حكت لها كيف هبط العديد من أهالي أورشليم من الهيكل عندما أخذ يصرخ فيهم في بهو الهيكل، قالت إنها شعرت بالخوف، رأت مخلصين وأتباعًا يُقتلون من قبل.. أخبرتها أن لا عائل لها بعد موت زوجها، وابنها الوحيد مريض يعيش على الطعام الذي تعده لها وإذا رحلت يموت.. قالت إن شبابًا يخرجون من خلفه ويسلمهم السلاح، همست: يبدو أن زيلوت أيضًا يا سيدتي.. كانت ماريا تنظر من نافذتها الوحيدة تراقب الطريق مثل الجميع.. أرادت أن لا تخرج أم يوسف وتأتيها في مثل هذا الوقت.. حينها ابتلعت أم يوسف ريقها، كانت تقف في صحن بيتها الواسع تنظر إلى

زوجها وولديها وهم يتجهزون في طريقهم للانضمام إلى ثوداس، كان يدعو الجميع لحمل السلاح وأتباعه وبه ستخلص أورشليم من حكم الرومان وستنجو نفوسهم، دعاهم إلى اتباعه إلى نهر الأردن، من هناك سيشق لهم طريق العبور من جديد وسيأتي الرومان ويحل الحاكم محل الفرعون.. كان ولداها دون العشرين، ذهبا خلف زوجها تاركين لها زوجتين شابتين، إحداهما تنتظر مولودًا.. وابنتين عزبتين، تاركين لها الصبي الصغير أصغر أولادها.. تحصنت في بيتها تنتظر عودتهم وترقب الأخبار التي انطلقت مثل النار في الهشيم.. كانت القوة الرومانية المرابطة في أورشليم بجوار الهيكل صغيرة الحجم فاستطاع متمردو ثوداس التغلب عليهم.. عمت الفرحة على أهالي المدينة، كانوا يخافون من الرومان ويكرهون وجودهم.. عندما فاز المتمردون تشجع بقية الأهالي ووقفوا خلفها وخرج الشباب الصحيح لينضم إليه.. قال لهم اتبعوني ولنذهب للأردن فيتبعنا وتكون نهايته.. تنبأ أمامهم فتبعوه.. رحل الرجال المتمردون من المدينة، تبعهم المنضمون إليهم من الأهالي إلى الأردن.. حملت أم يوسف بناتها وابنها الصغير حتى مدينة أجدادها القديمة، وسط حقول الكروم اختبأت.. طارت الأخبار، فادوس يحاصرهم.. تذكرت ما حدث ليوسف، أرادت أن تردد بعض الصلوات التي كانت ترددها في الماضي ونسيت بعضها.. قدمت نذورًا أن تترك إحدى بناتها في الهيكل إذا كتب لهم النجاة.. نامت ليلتها.. صوت عويل العجائز أيقظها.. ركضت نحو الباب وفتحته على مصراعيه.. كانت أخبار حصار فادوس لهم عند النهر على لسان أحد الفارين تتناقل بين كل بيت.. لم يكن أمامهم سوى معاودة الهرب.. لكن الجنود كانوا أسرع، حاصروا

الطرقات حتى يُسقِطوا المتمردين.. وضعت برقعها على وجهها، أمرت بناتها ألا ينظرن إلى الجثث الملقاة ويمضين عليها.. كان ابنها الأصغر يسير خلفهم، هي تحميه ربما شكّوا في أمره.. استسلم العجائز والنسوة والصبية الصغار بعد أن علموا أن الحاكم أمسك وقتل من قتل، لم يكن هناك سوى الاستسلام، لا تعلم أين زوجها وولداها أمقتولان أم أسِروا.. أم فروا هاربين.. جلس النساء والصغار في ساحة المدينة الضيقة رافعين رايات السلم.. لكنها فوجئت بالجنود يأخذون البنات أسيرات.. كانت تنوح وهي ترى ابنها الصغير أسيرًا في طريقه إلى رومية وبناتها عبدات.. لطمت وجهها.. سقطت عند قدمي الحارس الروماني أن يفك وثاق ابنها ولياخذ الكروم والمال والتجارة.. ألقى بها بعيدًا عن وجهه.

من بقي منهم عاد هائمًا على وجهه، منذ أشهر خرجوا معتقدين أن سنوات الجفاف والتشتيت والتذلل للأمم التي دامت دائما منذ أن استيقظوا على تلك البقعة من الأرض، يسمعون فيها عن حكايات أجداد لهم كانوا أبطالا عظامًا بنوا وشيّدوا فيها مدنًا وحاربوا وانتصروا على من حولهم، أخطأوا ولا يزالون وعوقبوا وتأدبوا، ثم عاد كل شيء على ما يرام.. أما الآن فلم يعد شيء مثلما كان سابقا، يقولون لهم في الصباح والمساء في الأعياد أنه سيأتي، نعم سيأتي، ملك على جحش، نعم ولكنه سيحارب مثلما فعل أجداده مثلما قيل لنا.. وها قد أتى واحد ثم الآخر وجميعهم رحلوا.. وعدت أنا مع من عادوا.. خطوت على جثة أخي وأبي وعمي وابن عمي.. وكل من

عرفت وكل من أحببت، وقالوا النساء سبايا، شقيقاتي وربما خطيبتي أيضًا لم تنجُ.. ما الذي جنيته أنا خطأً؟ أنظر إليك فأخبرني عن جرمي أو خذني إليك وارحمني ما عدت أطيق أو أحتمل.. نشأت أحفظ فروضك ووصاياك أتبع.. كلمات أنسخ، أصحو وأنام على كتابتها، صارت لي كالحياة.. بل هي حياتي فعلا، كاتب أنا في آخر رقة جلد باقية وجدتها وسط دماء.. دماء كاتبٍ أراد أن يخلد تلك اللحظة بأصابع يده.. وأن تنقل باسمه إلى الأجيال اللاحقة، يصف لهم لحظة رؤيته للشق الثاني للمياه، كان يجول وسط الحشود وكأنه يحفظ ملامحهم، ليكتب عنهم تلك المرة، شعر بالزهو.. وصف المخلص ومن خلفه، لا يعلم من أين أتى ولكنه تبعه، كان الوحيد الذي استطاع أن يكمل درس الشريعة مع معلم خاص، أصغر إخوته الذين ولدوا في أيام قحط حكمت على بعض منهم بالعبودية وعاد من عاد وضاع منهم من ضاع، لكنه ولد وعاد موسم المطر معه، كان الأثير لدى أهل بيته لذلك، تفاءلوا بوجوده، زاد الخير فأحضر له أبوه معلمًا خاصًا له ليتعلم الشريعة والقانون، لكنه أراد أن يصير كاتبًا، تميز بخطه الجميل، تعلم اللهجات التي عمت كنعان وأجاد الآرامية، حاول أن يتعلم لغة الأجداد القديمة لكنه لم يعثر على أثر لها، كبر وعمل في مجلس القضاء كاتبا، كان يجلس في المحاكم والاجتماع يدون بخطه ما يحدث بدقة متناهية تعلمها من نسخه الكلمات التي قالها الأنبياء وظل الأجداد يرددونها شفاهية حتى تمت كتابتها، عندما سمع ثوداس يطالبه بإخراج السيوف والاستعداد، لم يكن لديه سيف.. بل ريشة وحبر ورقع جلدية سحبها من خلفه وودّع أسرته، قال لهم إنه ذاهب لكتابة التاريخ.. أو ما سيصير تاريخًا.. كان يتبع

الحشود.. فقراء بائسون خرجوا يبحثوا لهم عن الخلاص.. حمل غلمانهم السيوف.. سيوف تعلموا صناعتها لكنهم لم يحاربوا بها منذ قديم.. من حمل سيفه تلك اللحظة تعلم كيفية استخدامه عبر حكايات الأجداد التي سمعها.. قال لنا انتظروا، إنه في اليوم الثالث، جلسنا عشرة عشرة في مجموعات صغيرة نتناول الطعام الذي تشاركنا فيه.. وكان الصباح الثالث.. قال لنا: ها أنا سآخذكم نحو العبور، هيا فلتتقدموا خلفي الصبية والشباب، شيوخ الرجال فليتبعوني أما الأطفال والنساء فلينتظروا في الخلف.

سمعتُ أصوات جيادهم، ركضت نحوه "هيا.. هيا تحرك.. قل لهذا النهر أن ينشق.. هيا ألا تسمعهم؟ إنهم قادمون" كانت عيناه زائغتين، أمسكت كتفيه أصرخ فيه.. جذبوني بعيدًا عنه.. قال لهم: أنا آمركم بالقتال.. وسيشق لكم حينها ويبتلعهم ولكن أظهروا شجاعة ولا تتركوهم يتقدمون إليكم.. قلت لهم: لا لا.. تراجعوا إلى هنا تراجعوا. لم يستمعوا، حاصروهم، تراجعت أصرخ.. لا أدرى كيف نجوت.. ربما اعتقدوا أنني مجنون شريد ولا فائدة من قتلي.. كان هناك أخي وأبي وعمي.. كان هناك شباب.. طفل في الخلف يصرخ ويحتضن أمه.. جذبها حارس على حصانه وربطها بحبل.. حبل طويل جمع أيادي نساء وأطفال.. أركض أسقط أمام جواده طالبًا العفو.. لا يبالي لصرخاتي.. كنت أصرخ له.. ثم أصرخ له هو.. افعل شيئا لا تصمت.. افعلها الآن أو لا.. رقصت له.. نعم أخذت أدور وأرقص.. أدور وأرقص له.. حتى يستمع إلي.. قطرات حمراء ضربت خدي أغلقت

عينيّ أحميها.. رفعت يدي أدور وأدور.. أدور حتى سقطت. سكون.. هل فقدت السمع؟ أذناي لا تعملان.. لا أعلم.. كان كل شيء صامتا ساكنًا لا يدور ولا يتحرك.. القدم ملقاة والأذرع.. وجوه غطتها الرمال وأخرى وصلت للنهر.. عجيب.. الرقعة لا تزال هناك حول وسطي.. والحبر.. بللت شفتيّ المرتين منه، اجترت على من سقط وعبرت.. أمسك بحبات الرمال أصعد فيها وكلما سقطت نهضت من جديد حتى صعدت الجبل، وجدت كهفًا خاليا وجلست على صخرة على حافته، دونت ما شاهدت، يا أمي وأخواتي.. إن كنتم الآن في رومية فلتعلموا أنني سآتي خلفكم، سادور عليكم في رومية والإسكندرية، سأجدكم، لم يعد هنا من أبقى لأجله.. سأهجر الكتابة.. نعم سأهجرها، ستكون تلك لفافتي الأخيرة داخل الجرة.. سألقي بها في هذا الكهف وأمضي... فلتبتعد عني وتنسني تلك الروح الغاضبة التي التبستني وأمسكت بزمامي زمنًا، الآن أعود وألقى بها وسأرحل عن تلك المدينة بعيدًا حيث يمكنني أن أبحث عمن فقدت من جديد...

٩

عاد لرؤيتها، مرة أخرى بعد أن أصبحت تعمل لدى الخياطة في السوق، عدل وشاح رأسه وهو يراقبها من بعيد، ليس على أحد أن يلاحظ أنه يرفع نظره إلى وجوه النساء ويتفرس فيها حتى يجدها، تسير النساء مرتديات البرقع من حوله، ما عدا هي علم أنها أممية من ملابسها، وعند عملها في السوق خياطة علم أنها عبدة.. تذكر أنه كاهن وهي زانية.. كانت متعة لسيدها ولا يحق له النظر أو التفكير فيها.. لكن قدميه تعودان لخداعه مرة أخرى وتجذبانه إليها، في تلك المرة تتنبه، لا يعلم إن كانت تبادله النظر أم التجاهل، يرحل دون أن يلقي حتى بإشارة.. لن يضيف لقائمة القتلى مقتولا جديدًا إذا علم أحد أن كاهنًا يحب أممية، سيُقتل على يد غيور مثلما حدث مع كل قاضٍ خالفهم، حتى أنهم يقتلون كل يهودي يتجرأ عليهم.. بقية البطون التي تعيش معهم وفي المدن المجاورة تبتعد نحو طبرية والجليل لتتخلص منهم، لكن هو لا يستطيع، أرادها ولم يستطع، كلما رددها عقله صرخ به أفق يا شماي، الرب سيعاقبك لا تجلب العار إلى رأس أبيك في شيخوخته.. كان يذهب ليراها بعد أن يفرغ من عمله داخل المعبد وينهيه، ياسيدي سامحني.. لكنه يعود لها.. حتى قرر أن تأتي هي.. وقفت ثيودورا في بهو النساء الأمميات.. كانت تلمحه وهو يهبط من الدرج بعد أن قدم تقدمات الكهنة.. نظر إلى الأرض من فوره حتى لا يفضحه أحد بالنظر إليها.. سارت نحو البهو المظلم والعمود التي عرفته

حاضرا مع تيبي ويوساف.. برغم أنه مرت سنوات لا تعلم عنها شيئا، وإن كانت سعيدة مع يوساف الآن أم لا، إلا أنها قررت أنها نهاية سعيدة.. تيبي الخجول كانت أكثر شجاعة منها.. فقد هربت لتتحرر.. نعم أصبحت حرة وليست مثلها عبدة، عاقبتها سيدتها بأن ألقت بها لتعمل وسط الغوغاء مثلما تقول.. نساء ورجال ينظرون إليها بكره.. نساء ينعتونها بالزانية، لا تعرف وجوههن ولا من ستأتي وتهاجمها مثلما فعلت أخريات من قبل، لم ترَ وجوههن من خلف البرقع.. رمينها بالحجارة ورحلن.. حتما هناك ترى يوساف من دون خوف.. هناك حيث يعيش الأميون متجاورين مع بعضهم وليس مثل هنا.. هنا يوجد ستائر.. هناك توجد ستائر.. ستائر في كل مكان.. تحجبهم وتغطي بعضهم تدعى الستائر المقدسة، لا تعلم ما المقدس فيها.. هل مَن خلق اليهودي لم يخلق غيره.. هناك هم وهناك نحن.. هناك آلهتنا وهناك إلههم.. لا تعرف سوى إيزيس، إنها من تحب، هي امرأة مثلها وتشعر بما تشعر وتفهم مشاعر المرأة.. لذا تناديها طوال الوقت.. كانت أمها في السابق تناديها، هي كل ما يربطها بذكرى أمها.. ذكرى منحتها حياة...

علم بإشارتها، تبعها، تطلع من حوله، كان الظلام يحل، يطبق على كل مكان، يخفي ما يجول، أرادت تجربة ما قالته تيبي.. أرادت لها يوساف خاصًا بها.. شعرت بالسعادة لأنها تريد...

تقلّب في فراشه، كان يتصبب عرقا، استيقظ فزعا، فزع صغاره بجواره وقامت زوجته، أسرع يصعد لعليته يتنفس الهواء، كان يخشى- أن ينظر للأعلى، كان السواد يحدق بكل شيء من حوله، زنى الكاهن لا يُغتفر، وما زاد العقاب أنه شعر بالسعادة.. نعم حث نفسه أن تشعر بالذنب لكنها لم تفعل، بل زادت وشعر بالراحة، أغمض عينيه، شعر أن السماء ستهبط وتنغلق عليه، أو ربما تنفتح الأرض وتبتلعه مثلما حدث مع الكاذب والسارق، ماذا سيحل بأهله إذا تعرض للرجم؟...

لم تعد تشعر بالخوف، تنام وباب بيتها مفتوح على مصراعيه في الليل ووسط الحارة التي عادت إليها ولكنها ليست بمفردها الآن، العلية تعج بالنساء والصغار الفارين، فتحت غرفتها لمن نجا من الرومان، كانت تداوي كل من تستطيع، شعرت ماريا ببعض الرضا.. لِمَ تتهم بالسحر؟ لأنها امرأة لم يعتقد أنها تفهم بالطب.. ليت كورثوبانوس كان هنا كان ليسعد.. تذكرت أنه روماني ولكن لا، ليس كورثوبانوس مثلهم، لا يفعلها.. تعلم أنه غادر، طلب منها أن تأتي.. في مدينة واسعة لا تعرف ستائر ولا أحكامًا مطلقة، هناك بالإسكندرية، كان ينطقها بطريقة غريبة، أحبته وهو يلفظها.. سألته: مدينتك؟ أومأ نعم.. سألته هل هناك هيكل؟ قال نعم.. مثل هنا يوجد هناك.. كثر في كل مكان.. تمنت أن تراها معه، لكنها لم تستطع أن ترحل معه، شيء ما هنا يربطك بوثاق لاتفلح في الخروج منه.. تتحمل معه البؤس والشقاء.. تحب الأمل فيه.. كانت تكتب له، علّمها اليونانية وعلمته

أحرف الآرامية التي تعلمتها.. بعد أول لقاء لهما طلبت منه أن تتعلم.. أخبرته أنها تصنع الأعشاب.. تبحث عن كتابة الوصفات.. هنا المرضى كثر بلا أمل.. نظر لها: أنت غريبة يا ماريا؟ تلك كلمة اعتادتها منذ كانت في بيت أبيها.. بين زوجاتهم.. في بيت حزقياس..

تبسمت في وجه صغير تعلم أنه فقد عائلته.. أحبته وقررت أن تبقيه معها في بيتها.. لم تشعر بالخوف.. فكل من تألم دخل بيتها يطلب علاجًا.. صنعته لهم من الأعشاب.. منهم من يشفيه العشب وآخرون تشفيهم الرقية.. تشعرهم بالسعادة وبالقوة.. كانت تضعها لهم في الملابس تحت الرداء الذي يكون فراشًا لهم في المساء.. في المساء كانت تضيء القنديل وتكتب على ضوئه، تكتب من ما سمعته من حكايات تدونها على الرقع حتى لا تضيع.. تكتب عن عدم التصديق في الكلمة التي انتابت بعضهن ثم تعود وتكتب سخريتهن ثم خوفهن وامتثالهن.. هن غير مكتوبات.. ولكنهن يصرخن فلابد من كتابتهن.. لا تعلم إن كانت تلك الرقاع ستصل يوما.. ولكن أصواتهن انطلقت ولم تعد لتمحى.. كتبت أسماء كل من عرفت في حياتها، كتبت حنا، مريمنة، كتبت عن ليئة ورفقة.. علمت أن الصوت يمحى أما الكلمة فلا. ستبقى. علمت أن اللسان عضو فاسد هو الأكثر فسادًا بين الأعضاء والكل بجواره أبرار، لذا امتثلت للصمت طواعية...

صمتت عندما أخبرها أنه سيرسلها إلى أدومية حيث موطن أجداده.. نظرت إلى الحارث بحزن.. أنا مريم كيف لم تعد تتطلع إلى وجهي؟ ألستُ

أنا من أحببت وأنا من أتت معك حيث بيتك ولم تعد تنظر إلى الخلف؟ تقدمت أبناءها في قافلتهم الصغيرة التي ضمتهم.. نظرت إلى فتيانها في نهاية القافلة بحزن.. قتل يهود من الجليل.. أخبرته أنه صار لها عائلة.. أخبرها بحزن أنه كلما رأى وجها تذكر وجوه من ماتوا من أقربائه الذين أحبهم، لا يستطيع أن ينتقم منها لكنه سينتقم من أهلها.. كيف ينتقم منهم وهي تعيش معه في بيته؟ هناك في أدومية يمكنها أن تعيش وتتعبد هناك كما تشاء فلن يسأل أحد لمن تلقي تقدمتها...

نزلت حيث بيت آبائه وسط الحقول، بقيت حتى دب رعب طولمي، دعَوه سيدًا بعد أن كان لصًا، كان يرسل ليأخذ، شعرت بالخوف والوحدة، فتيانها يخرجون للرعي وربما أحدهم لن يعود، تخاف على الفتيات، رجاله يحصلون على الفتيات العذراوات مقابل ترك رجال البيت، لن تترك بناتها لقطاع الطرق.. ارتدت برقعها على وجهها وخرجت في المساء.. كانت تعلم أنه فوق الجبل يسكن كهفه، سارت له ومن خلفها أفضل ما طرحت لها الأرض من كروم ومواشيَ وطيور.. حملت معها عبدتيها أيضًا.. وقفت على بعد خطوات تطلب رؤيته.. عندما شاهدته من بعيد سجدت له، كذلك فعلت العبدتان.. كان طولمي محاطًا بقطّاع طرقه.. لم يكن أحد بأدومية يستطيع الوقوف أمام وجهه.. اقتربت منه وركعت.. قامت عندما سمح.. نظر لها، قالت عبدتك أرسلت لك من خير ما لديها.. لأنها علمت في قلبها أنك لا تنتصر بمفردك إنما إلهك معك، لهذا خشيت عبدتك من أن تأتي أيديك على فضلاتها البسيطة فأتت

لتقدم لك هي أفضل ما لديها.. ابتسم لها وأمر غلمانه أن يحملوا ما أحضرته.. طلبت العهد.. ابتسم وقال: أقسم لك بإلهك لا يمسك سوء...

سقط على وجهه من التعب، نظر إلى آخر قطعة خبز كانت لديه، نهض من سقطته، لم يكن حال المدينة بأفضل من حال الجبل، حل الجفاف على المدينة مرة أخرى وجلب معها الجوع والقحط، لم يعد الناس يهابون رجال الغيور فلم يعد لديهم ما يخشون فقدانه.. تطلع يوحنان إلى السماء كأنه يرجوها ببعض الماء ليروي عطشه.. حتى الخزان قد ضحلت مياهه، سقط على ظهره كانت السماء أمامه والساحة خالية إلا ممن سقطوا مثله ولم يستطيعوا النهوض، بالأمس كنت فتى فقد والده في الهيكل.. قتل أمامي ولم أعرف قاتله ولم أرَ وجه أمي، دعوني يوحنان وفقدت اسمي الأول.. الآن أرجوك أنقذني من الجوع والموت.. أنقذني من يد ولد الغيور.. أعدني إلى بيت آمن.. وتعود لي.. سيدي.. أكان في طريقه إلى الجليل حيث الأودية.. كان يبحث عن طعام المرعى الذي ينبت من الأرض ويرتحل خلفه الراعي.. كان على بعد خطوات منها.. رآها.. سقطت على وجهه تمرغ في التراب وهو يقطف تلك النباتات يبتلعها في نهم.. كان يعلم أن الطريق لا يزال أمامه حتى يصل إلى بيت ثامار.. زوجته الكنعانية.. كان يعلم أنها منجاته الأخيرة، رغم رفض الغيورين للزواج من غريبة إلا أن يوحنان كان قد أحبها.. لذا تم العفو عن أبيها وما يملك بشرط أن تكون له زوجة وتنتظره في بيت أبيها.. لم يكن ليستطيع أن يتحدى ولدي الغيور

في العلن.. برغم أنه ربى معهما عندما حُمِل صغيرًا إلى الجبل ليتعلم القتال بالسيوف وقطع الطرق على القوافل الرومانية.. وأنه عرفهم صغارًا إلا أنه لم يكن أكثر من عبد يعيش في وسطهم.. أقسم لهم بإلههم أنه لن يخون عهدهم ما داموا أحياء.. ويقبلونه كواحد منهم.. كان على جبل جزريم.. كان الهيكل هناك، اقترب منه، كان يبحث عن تقدمة.. وجد بعض الخبز.. فأكل..

كان الجوع يحيط بهم في كل مكان بسبب الجفاف، لكن والد ثامار استطاع بحرصه الاحتفاظ في خزائنه ببعض الحبوب والكروم التي تكيفهم للانتهاء تلك المجاعة، كان قد أمر عبيده وأهل بيته بإغلاق الأبواب جيدًا، فلا يريد من جائع أو لص أن يدخل عليهم.. من بعيد رأى يوحنان السور فعرف أنه بيتها، ركض حتى يصل لبوابتها، كان هناك عبد يجلس خلف البوابة ليحرسها.. قفز عندما رآه أخرج سيفًا ليهدده، كان يوحنان يعلم أن العبيد لا يجيدون استخدام السلاح، فلو أجادوه لما اقتيد ثوداس وأتباعه وقطعت رؤوسهم في المدينة أمام الناس.. صرخ: أتيت لرؤية زوجتي.. قل لسيدتك ثامار إن زوجك حضر...

خافت منه.. قالت الآن لم يعد لهم قوى في هذا الجوع.. رد والدها: منذ سنوات وهم يكثرون حتى العامة يحبونهم يا ابنتي.. عندما يخرج واحد منهم لينادي على الجموع يجد آذانًا مصغية.. والجوع لن يبقى إلى الأبد..

قالت إنه غير محبوب بينهم.. رد بابتسامة: لا تعلمين الغد.. من يبقى ومن يرحل، فلتدخليه الآن إلى مخدعك.. وسط الجبال يجلونه منذ أن خرج

ولدا الغيور من خلفه ولم يستطيعا أن يتخلصا الآن.. الآن الحاكم يريدهم هم.. والحاكم يا ابنتى وإن وقفنا في وجه بعض الوقت إلا أنه يعود لينتصر من جديد، تذكري أن كل ما يحدث لنا عقاب، لذا فالسيد معهم ويؤدبنا فلا تكوني يدًا تهدم بيت أبيك.. بل أطيعي وعمريه فالسيد رفض أن يعطيني الصبي ليشد ظهري وعزمي وأنا بحاجة إلى رجل.. وزوجك هو ذلك الرجل..

كانت تعلم أنها لن تعود لخدمة سيدتها داخل قصرها في أورشليم وأنها نبذتها بعد أن كانت خادمتها الوفية والمخلصة، وأخبار متمردين جدد من أهل المدينة يريدون الخروج على أسيادهم، تعلم أنه سيحدث له مثل كل مرة، وهذا ما يُشعِر بالفخر نوعًا؛ فهي تنتمي لأناس أقوياء حتى وإن كانت مجرد عبدة فهي من نفس الجنس.. نفس الجنس.. ميترايديس كان دائما ما يرددها على أذنها وهي صغيرة ولم تعيها سوى الآن، ترمقها بقية نساءهم بغضب.. يكرهون وجودها لكنها لاتبالي سوى به.. في تلك المرة شعرت بالخوف عليه، في المرات السابقة كان هناك كهنة يعاقبون مع المتمردين بتهمة التحريض على الشغب، لكنها تعلم أنه يكره العنف.. تذكرت سيدها، كلهم غوغاء ولا فارق بينهم ما بين كبير أو صغير يسارعون للعنف والتمرد حتى باتوا مصدر قلق من تحريض على العنف من المدن المحيطة بهم.. كانت سيدتها تقلق بشأن بومبي السيد الصغير الذي صاهر هو أيضًا الحاكم وفى طريقه إلى روما، ربما إذا حدث شغب سيكون على رأس الجند

في فض التمرد.. لم يخطر على بالها بومبي حينها بل تلك المرأة الشابة التي تراودها في أحلامها منذ الصغر، وإن كانت ملامحها غير واضحة إلا أنها تعرفها جيدًا، ولكنها هناك بالإسكندرية حيث يفصلها البحر، في مرة في بيت الخوص على أطراف المدينة سألته كيف يذهبون إليها؟ ابتسم لها وسألها: هل تودين الذهاب إلى هناك؟ ردت بابتسامة: نعم إنها موطني، أنا من هناك.. أمي هناك.. هل نسافر من هنا؟ نظر لها: وأنا من هنا، تلك المدينة هي لي وأبي من هنا ولا يمكنني تركها..

من أعلى الجبل وقف يتطلع إلى الشمال حيث هناك "أورشليم "، أغمض عينه تنفسها، حث عازر قدمه على استكمال طريقها نحو وادى شعير وسهل شارون، كان يحلم بأن يرى البحر حلم به، منذ أن أجبِر على أن يعيش في الجبال حرًا بدلا من مدينة يعيش فيها عبدًا.. لكنه كان عبدا لولدي الغيور وللغيور نفسه لسنوات طويلة والآن انتهى.. قتل الغيور وولداه، نسي- الجوع، نسي- المدينة، أراد البحر ليرحل، سينسى- تلك المدينة ومن قتل ومات.. ومن باعوه في السوق لم يعد يهتم لأمرهم.. ها هو البحر يقترب منه، سقط على وجهه أمام وضع الماء في فمه.. لم ينفر من طعمه المالح بل تجرعه، كان يشرب الخمر لينسى العطش حتى نفد منه..

١٠

كان العابد يلقي بشباكه قريبا من الشط، في المساء سيعود ببعض الطعام لأولاده.. أقسم لهم بالإله إنه سيُحضر معه سمكًا اليوم وغدا يبخرون أمامه في المعبد، نظر له ابن عمه بازدراء منذ أن تهود ولم يعد يتحدث إليه مثل السابق، وعندما علم بالقتل الذي حدث مع مشاغبي الهيكل حزن.. تعجب عابد، فهنا في السامرة لا يحدث مثل هذا.. لكن بعض اليهود منذ فترة قاموا بقتل بعض السامريين.. كان يعلم أن أهله يريدون الانتقام لأبناء عمومتهم الأبرياء الذين قتلوا.. كان مشايخ السامرة يجتمعون معًا في مجلس ليحددوا ما سوف يحدث.. لم يكن هناك يهود يعيشون وسطهم إلا متهودين قلة.. منذ أن ذهب للهيكل وأحب من بناتهم.. ابتسم وهو يسحب الشبكة الثقيلة بالسمك الصغير.. سيحضر بعض الأقمشة الجديدة لأجل "دينا"

جذب الشباك إلى القارب.. سمع صوت لهاث، التفت إلى الخلف.. كان رجلا في أواخر العشرينات مُلقىً على وجهه بالقرب من الماء.. قفز من قاربه وحمل رأسه.. أدار وجهه نحو السماء.. حمله على التنفس.. شهق فتح عينيه.. انتصب.. سعل بشدة.. حمله على السير.. سار به في دروب ضيقة.. كان يلمح اللون الأخضر يطفو من حوله من بعيد.. تبسم وأغمض عينيه.. كان يسمع أصواتهم.. صوت الرجل الذي يحمله ويضعه على فراش

مرتفع.. تأوه.. لقد اعتاد جسده على ملمس الأرض وخشونتها.. كان هناك غطاء وليس عباءة، شعر بالدفء.. سقط في سبات..

جلس حول الطاولة وبجواره زوجته وصغارهم.. سألته عن الغريب.. قال لها سيحضر له في الغد المداوية بالعشب لتراه.. كان الصغار يأكلون في نهم.. ابتسم وقال لها: سأذهب لأبيعه في "تاريكي" يصلح للحفظ في براميل سنحظى ببعض الدراهم.. سنقدم للإله.. ربما ذهبنا إلى مرج أبيك...

فتح لعازر عينيه.. لمح المرأة وهي تضع العشب المطحون على جبهته.. انتفض.. أبعد يدها عنه ونظر لها بنفور.. تراجعت.. نظر عابد له: اطمئن إنها تداويك من جروحك..

ما اسمك؟ سأل عابد.

أجاب: اسمي.... اسمي سمعان.. من أورشليم.

علّمه كيف يلقي الشباك.. جلس سمعان على طرف القارب.. وجلس عابد على الطرف الآخر.. أخبره أنه فلاح وهرب من وجه جنود الحاكم بعد أن قام المتمردون بالشغب في المدينة فقتلهم حرس الرومان.. أخبره أن عائلته قتلت لأنها في ذلك اليوم ذهبت للهيكل.. نظر له عابد بأسف: هنا أيضًا يوجد هيكل.. اذهب لجزريم.. هناك لن يضايقك أحد، نحن هنا لا نتشاجر مع الحرس.. كلٌ منا لديه معبده.. أليس كذلك؟

تدثر بردائه، شعر ببرد يدخل لجسده، كان سيخرج للبحر، أراد أن يحصل على البركة قبل الذهاب، سمع المصلين، مات من هرب من وجههم حتى لا يقتلوه بالخيانة.. لم يكن بمفرده.. فقط هو من اكتشف منهم.. هل نجوا؟ مات الغيورون والجبل خالٍ.. لا.. إنهم لا يموتون سيعودون ويقتلون الخائن.. رئيس الكهنة قُتِل، لم يكن قويًا بما يكفي ليقف معهم أمام الحاكم.. وقف مع الأقوى.. الحاكم.. أخبره أنهم المشاغبون ولا علاقة للشعب بهم.. لصوص.. قتلة ماجورون يسكنون الكهوف والجبال.. لا علاقة لهم بالأتقياء ولا المغتربين بأعالي الجبال.. كان في الهيكل يقوم بالتقدمة، تقدم ذو العباءة وسط الزحام.. نحر جنبه ورحل وسط الصراخ.

علم أن الحاكم عين بديلا له.. وعاد الهدوء إلى المدينة.. هنا كان سمعان.. ولد بلا ذاكرة يعيش قرب البحر يتغذى على أسماكه.. لا يتعقبه أحد ولا روح من قتل تطارده.. إنما هناك سيكون عازر.. الغيور القاتل.. سيكون عليه العودة للجبل مجددا.. سيخفي وجهه ويتغطى بالعباءة السوداء ويحمل خنجره حول وسطه.. حسد عابد فهو يعيش هنا وأجداده من هنا لم يُبَعْ أو يُشترى، لم يضطر للقتل والعيش بالجبال.. سكن جوار البحر واصطاد السمك وأنجب الأولاد.. مر بجواره مجموعة توجهت إلى الممر الخاص بها قدمت أضحية البعل.. اتجه هو نحو اليمين حيث تقدمة السيد الرب أسفل جبل جزريم.. مروا بجواره لا يدرى لِمَ نظر لهم طويلا.. في السابق كان

بهو الأمميين هدفا لهم.. لكنه تخلص من عازر القديم وصار هناك سمعان الجديد..

لمحه ليشاوس وهو يركض مبتعدًا عن ذلك الكوخ، عدل شماي من وضع الشال والطاليت، دار حول الكوخ، مر وقت قصير قبل أن تخرج منه الأممية، سخر ليشاوس من الكاهن والأممية، تبعها في السوق حتى دخلت لدكان الخياطة، دار من حوله حتى علم أنها عبدة هناك، تبع الكاهن للهيكل ووقف يراقبه وهو يقدم التقدمات، نظر لها ليشاوس، كان يعلم أن الكاهن سيأخذ ما يطيب له منها ويرسله إلى بيته، تذكر أمه التي تجلس على الرحى تشتهي بعض اللحم والتقدمة ولا تقدر على ثمنها.. وقف من خلفه وسمعه يردد الصلوات، رد آمين.. انصرف الناس.. اقترب من أذنه.. جميلة تلك الأممية.. تعلم أنهم مسلطون علينا حتى نسقط أمام السيد.. حفرة الرجم تتسع ولا تضيق من أحد.. ضاقت عيني شماي.. ابتعد به في الرواق المظلم.. ابتسم ليشاوس.. أريد من ذلك اللحم، نعم الذي ترسله إلى بيتك...

ماذا؟ إنه للسيد.. كيف أعطيك إياه؟ هل تريده أن يلعنني؟

هل لن يلعنك وأنت تزني بتلك الأممية؟

وضع يده على فمه: اصمت واخفض صوتك.. انتظر ها هنا وسأحضره لك...

كان عليه أن يكذب ويقول إن الخادم سرقها ولم تصل إلى البيت.. كذب على بيته وعلى والده الكاهن..

ليشاوس لم ينسَ ولم يتوقف، طالب بالمزيد، حصته في اللحم لم تعد تكفيه، والدراهم.. طالب دوما بالمزيد.. أخرج شماي من دراهم بناء الهيكل.. كانت آثار المتمردين لا تزال قابعة في المدينة فقيل إن لصوصًا يسرقون من خزانة الهيكل.. لم يستطع أن يبتعد عنها.. قال له إنها لم تعد هناك، لم يعد هناك كوخ أو أممية فليرحل.. أخبره أنه رآها مرأى العين وليس بمفرده.. واليوم الاثنين والمجمع يعقد والقضايا التي تنظر لا تنتهي ولكن قضية الكاهن ابن عائلة الكهنة ستكون حديث أورشليم لأجيال يتناولونها مثل حكايا الخطاة الكثيرة التي يحكونها ويكتبونها إلى الآن... كان البهو مظلمًا.. تمعن شماي في عينيه.. صرخ فيه: ملعون ممسوس.. أسرع ليشاوس ليخرج خنجره لكن شماي لم يدعه.. ذبحه بسكينه.. تعلم كيف يقطع بضربة واحدة من دون صرخة.. من دون ألم... حمله.. رفعه لبهو الهيكل.. دخل غرفة التقدمة.. وضعه على الموقد وأرسله محرقة للسيد.. أراد أن يسامحه، قال: لقد كنت فاسدًا ولكني أرحت شعبي من فاسد آخر !!!...

كذبت.. سرقت.. قتلت.. أحببت.. هذا هو ما فعلت، عندما أحببت أثمت.. أي إثم.. أوقع بي شيطان.. لا.. شيطانة.. لكني أحببت.. لكنها ليست من أقربائي.. ربما لم تعرفك ولكن أليس لها عذر؟ هي لم تعلم.. سأعلمها.. أليس كذلك؟ سأعلمها.. سقط أمام المحرقة.. فتح يديه.. نظر

للأعلى.. ها أنا أمامك.. إن كنت تتركني لأعلمها.. أو أن ترسل لهيبك ليأخذني ولكن لا تدع أبي يذل وينكس الرأس أمام الشعب.. من مات خائن أكل من خبز تقدمتك وأكل من الذبيحة.. من فعلوا هذا سابقا موتًا ماتوا.. نفذ سؤالك هذا ما فعلت؟ نكس رأسه.. ضم يده.. يخفي ارتجافة جسده.. تمتم: ماذا فعلت؟ لقد أحببت.

مات الصبيان.. علم أنه لن يعيش طويلا.. قال في نفسه هذا عقابي.. أفضل من ذل أبي أمام شعبه.. هكذا صنع بي إحسانًا.. نكس شماي رأسه.. لاحت أمامه.. حاول أن ينفضها عن رأسه بغضب لكنها لم ترحل.. صرخ.. تخبط في أعمدة البهو.. طلب الموت.. لكنها لم ترحل.. صرخ فيها: ماذا تريدين مني؟ ابتعدي.. هيا هيا ارحلي عني.. اتركيني.. لمَ تبقين بعد أن جلبتِ عليه الشقاء؟

ما حدث كان حديث كل الألسنة.. علمت أن زوجها الحارث فعلها وانتقم لأخيه، وصلها ما حدث من قتال، أبلغها ولدها قبل أن يرحل ليلحق بأبيه.. حاولت مريم منعه ولم تستطع، لم يفهم يومًا لمَ فعلت ما فعلت وصعدت لذلك اللص.. قالت له مرارًا: أردت خلاصك وإخوتك.. أردت أن أحفظ إخوتك.. لكنه لم يسمع أو يغفر وازداد نفورًا منها، سيصل الأمر إلى الحاكم، تواترت الأخبار لديها سريعًا، لقد هجم اليهود لينتقموا، لم تستطع البقاء.. أودعت الفتيات لدى امرأة عجوز ريثما تعود.. ورحلت خلف زوجها الذي نبذها.. كانت تعلم أنه نبذها لعائلته لكنه لم ينسها.. قلقها

على ولدها دفعها للرحيل مجازفةً في الطريق أن تقع في أيدي اللصوص ورجال طوملي.. تعلم أنه إذا علم برحيلها سيعدها هاربة منه وربما يرسل في إثرها لينتقم.. لم تهتم، كان عليها أن ترحل.. ربما ذكرتهم بنسبها وعائلتها فكفت الأذى عن زوجها.. زفرت في حسرة، لا لن يلتفت أحد إليها.. شهادتها تقف أمام شهادة عشرة رجال!! من سيهتم؟

صوت الصراخ هو من استقبلها على بوابة المدينة.. كان هناك خنجر مرفوع في كل يد.. أهل زوجها أمام أهل أبيها كلاهما يطلب الثأر.. ركضت وسط الدماء التي تناثرت حيث بيتها.. كان مفتوحًا.. خاليًا.. لم يترك به قشة، صوت الرحى انطفئت.. ضربت على صدرها.. همست: خراب.. خراب.. خرجت للساحة.. كان هناك زوجها وكان هناك آخر كلاهما يتقاتل بالسيف.. كان الآخر من ذويها ولكنه أشد بأسًا.. الطريق مملوء بمن نزفوا حتى الموت.. جنود الحاكم على الأبواب يحاصرون المدينة.. كان زوجها ينزف من ذراع.. وكان الناس يتحلقون صامتين.. سقط سيفه وسقط هو إلى جواره.. صرخت.. لم يتقدم أحد.. كان يقترب ليغرس سيفه.. أسرعت.. ألقت بنفسها على حامل السيف.. سقط على وجهه من المفاجأة، استل زوجها السيف وطعنه على أرضه...

كان هناك جنود الحاكم.. وكان أهلها.. أعِدّت أعمدة الإعدام.. عُلق عليها أهلها.. كانت تقف تراقبهم بحزن.. خرجت امرأة عجوز: أعدِموا الزانية.. التف من حولها الأهالي.. أهلها.

كنت أنقذ زوجي.. كاد أن يموت.. أنا امرأة.. امرأة ضعيفة توقفوا.. لا لا يحق لكم.. قلت لكم كنت أنقذ أبا أولادي.. هذا قتل ابنى وزوجي كان يثأر.. خرجت له برغبتي.. اتركوني...

وقفت أمامهم في المحكمة التي عقدت من أجلها ..وقفت مريم في نهاية الثلاثينات تنظر إلى مريم الطفلة التي ركضت من هنا يومًا.. صرخت الكلمات في أذنها لكنها لم تستطع أن تخرج أكثر من هذا فلم تمر على لسانها ولم تسمعها الجموع...

أين زوجي الذي أنقذته ونبذني؟ حتى في الموت لم يرد أن أرى وجهه.. كانت تسمعهم يصدرون الحكم.. زانية.. ألقت بجسدها على رجل غريب!..

من أين خرج هؤلاء العجائز؟ يلتفون من حولها.. من أين أتى القضاة يحملونها لتلك الحفرة الواسعة على أطراف المدينة.. تركوا جثث قتلاهم تدفن وأتوا خلف الزانية التي أنقذت زوجها من الموت...

سقطت على وجهها وسط الرمال.. من فوق شاهدتهم يلقون الأحجار.. عاد الكرم.. عاد ينضج من جديد.. ضحكت وركضت في الكرم الواسع.. ركضت.. أعين أيها بعيدة ولا أحد يراها.. رفعت صوتها بالضحك أكثر.. رقصت وسط أشجار الكرم المرتفعة وقطفت من أطيبها وأكلت.. ستعاقبها أمها، لم تساعدها اليوم في صنع الخبز والطعام.. ستعاقب ولكنها تبتسم.. أصوات الصرخات بعيدة.. هل تخرج منها أم منهم؟ كلاهما يظفر.. ولكن بماذا؟ لم تبالِ.. ابتسمت لهم أكثر.. ابتسمت حتى اختفى الوجع ورحل معه كل ألم.

١١

أفرج عن المدينة بعد حصار، وقفت حنة من بعيد تشاهد المرأة التي ترجم، سمع صوت صراخ القضاة والعجائز.. تراجعت إلى الخلف من وسط الزحام. ركضت حتى وصلت إلى بيتها.. كان الخراب سكن المدينة فلم تجد أباها أو أخاها، لقد قتلوا على يد الحرس عندما ذهبوا للشكوى ضد براءة قاتليهم.. لم تجد أمها.. صرخت باسمها فلم تجب.. بكت.. هي أيضًا رحلت.. خرجت حنة.. كانت بالأمس ابنة الخامسة عشرة.. كانت تتحضر لزفافها إلى ابن عمها.. لكنه خرج أيضًا لأجل الثأر ولم يعد.. خرجت من بوابتها التي تركت على مصراعيها.. لم تعرف الاتجاهات فلم تخرج من مدينتها من قبل.. أرادت أن ترى الهيكل.. شعرت بالموت.. كانت ستذهب مع خطيبها إلى أورشليم وسترى الهيكل ربما لأول وآخر مرة في حياتها وتقدم تقدمتها هناك.. حسدتها فتيات عائلتها فلم تخرج فتاة أو امرأة بصحبة زوجها في الطريق أو تسافر معه.. لن يكترث أحد إن ذهبت للهيكل وقدمت هناك أو لا.. لكنها كانت قد نذرت إذا تزوجت بابن عمها وصلت.. واستجاب لها سيدها.. لا تدري أي لعنة أصابتها حتى ينتهي كل شيء.. من فترة طويلة سمعت بما قيل عن قاضي مجمعهم المحلي بأنه تنبأ بخراب آخر.. لم يسمعه أحد.. وطرد من المجمع، قالوا إنه جُن.. قال إن الغضب عظم والخطايا كثرت ولم يعد هناك مجال للتراجع....

كان الطريق طويلاً.. سقطت من التعب.. اقتربت منها أصوات قافلة قادمة من الطريق في طريقها للمدينة.. رفعتها أيدٍ عن الأرض وحملتها على جواد.. كانت تتوقف كل فترة وتعطيها قطرات الماء.. فتحت عينيها لمحت وجهًا ثم عادت لغفوتها.. كانت نصف واعية وهى تقف وسط السوق.. سمعت الصوت الذي يطعمها يتحدث لآخر.. حملتها أيدي الآخر.. لم تقوَ على الرفض.. أرسلها إلى الداخل حيث أيدي امرأة.. تفحصتها جيدا.. كانت حنة تريد الصراخ بها أن تتوقف عن لمس جسدها.. لكنها لم تستطع.. سمعت صوت المرأة تقول إنها جيدة.. عذراء.. سمعت صوت الآخر: هكذا يرتفع ثمنها؟

كان عليها أن تحمل العلف وتطعم الحيوانات.. ثم تطحن القمح.. وتهتم للصغار، كان سيدها صاحب حقل كرم، كان يخرج في العام مرة ليقوم ببيع المحصول ويعود، بعد أن عاد الرخاء استطاع أن يحصل لزوجته على عبدة.. لم تلحظ حنة نظرات سيدتها لها.. كانت حنة سمراء طويلة.. مكتملة الحسن.. وكانت هي في الثلاثينات من العمر وزوجها لم يتزوج من أخرى بعد.. وكل من أنجبتهم فتيات.. لم تكن تملك أن تمنعه من الزواج بعد أن مات أبوها.. كان أبوها صاحب الكرم والتجارة وزوجها يعمل لديه.. ظل سنوات طويلة يعمل لديه حتى استطاع أن يقدم لابنته مهر زواجها.. احترم أباها فلم يتزوج بأخرى طوال حياته والآن ها قد رحل.. تلك السمراء تغضبها، تعمل في البيت ولا تلاحظ عين سيدها التي تداعب

خصرها.. لم تقدر على المجازفة بطردها.. ربما ألقى لها زوجها بورقة طلاقها.. يستطيع أن يقول إنها خالفته فلا تحصل منه على مال ويطردها من البيت.. إلى أين تذهب؟ ليس لها أقرباء، منهم من مات في المجاعة وآخرون في حصار الحاكم للمدينة.. تحملت حنة إيذاء سيدتها.. تحملته في جلد وانتظرت.. انتظرت حتى يعود السيد.. وفي صباح يوم قدومه حملتها إلى السوق، أرادت أن تعيدها إلى البائع وأن تقبض على بعض الفضة.. كانت تعلم أن الفتاة حسناء وستباع بسعر غالٍ لكنها لم تتوقع أن يكون هناك زوجها بالسوق.. عادت الفتاة إلى البيت.. كانت تعلم أن سيدتها تضمر لها السوء.. في المساء تسللت، كان سيدها ينام في غرفة الماشية ينتظر الوليد الجديد.. يخاف أن تقتل البقرة رضيعها.. نامت عند أطراف قدميه.....

كانت حنة تشاهد سيدتها وتتمتم "مش قادر يقوم قال كتفوه ".

وافق العابد على أن يزوجه شقيقته.. فرح سمعان.. أحس أنه عاد حرًا.. مات الغيور وولداه ومات معهما عازر وولد هنا سمعان.. تزوجها وعاش مع العابد بجوار المياه يصطادان السمك.. كان يفرد شباكه عندما لمح زوجي أعين تلاحقه.. تطلع فيها وأدار رأسه بعيدا، كان شيخا وتعرف عليه، حامل الخنجر هذا إسخريوطي.. اقترب الإسخريوطي: ياسيد.. هل تعطيني من سمكك.. استدار عابد للغريب: كم تدفع؟ أخرج درهمًا وألقاه له.. التقطه عابد وأعطاه سمكة.. ابتسم الإسخريوطي: هل تأوي غريبًا يا سيد؟

جلسوا حول الطاولة، لم يتكئ عازر إلى الطاولة بل تناول طعامه مثل الغرباء.. راقبه الإسخريوطي بنصف عين وجلس هو أيضًا مثل الغرباء، وعندما انتهى الطعام طلب الغريب من عازر/ سمعان أن يريه العلية فخرجا معًا إلى السلم الخارجي حتى يتأكد أن ضيفه حصل على مبتغاه.. نظر الإسخريوطي إلى سمعان: غريب أنت يا سيدي، من هنا؟ أجاب سمعان: بل أنا من هنا وأعيش وزوجتي منذ سنوات على صيد السمك.. يقولون إن الأسماك ضعفت من تلك المنطقة.. تعلم أن الرومان استخدموا حصيلة السمك ويرسلونها إلى رومية.. تجاهل سمعان كلماته وهم بالنزول.. فصرخ الغريب: قُتِل من الغيورين من قتل ولكنهم الآن بحاجة إليك.. لا يمكن أن تأكل مع غريب وغرباء يدنسون المعبد.. أكمل سمعان طريق الهبوط فرفع الغريب صوته أكثر: لقد أقسمت أمام السيد أنك تطيعه ولا تخالفه.. وأنك ستنفذ إرادته ما حييت، تذكر أننا لا نملك إرادة وهو من اختار لنا حياة القتال لأجله مسبقا.

تأخر حمل زوجة سمعان فانزعجت.. هو علم أن السيد منع بطنها.. كان يشعر بالخوف، ماذا إذا عاقبه لأنه يخالف إرادته ويتبع هواه الآن.. تذكر القسم.. تذكر يهوذا عندما صرخ في وجهه: سيدك اختار لك ذلك المصير، أنت لست عبدا لأحد.. أنت عبده هو فقط.. منذ اليوم عليك القسم بطاعته وإلا سيتوجب عليك الهلاك.. كان يهوذا يميل إلى الصدوقيين حيث الهلاك والموت في العالم الآخر.. كان عليهم التخلص من الغرباء حتى الممات.. كانوا يعلمون أن في العالم الآخر سيكون الهيكل مطهرًا من كل الغرباء وسينالون جزاء حفاظهم عليه.. خاف الجحيم.. ابتسم له يهوذا

وربت على كتفه: لا تخف أنت ستطيع الأوامر.. فقط أطِع واسمع وسيكون هو معك...

تقلب سمعان في فراشه، لقد شعر بالأمان هنا.. أراد أن يحيا بسلام بجوار البحر حتى الممات.. لا.. لا يمكن.. إن ماحدث صدفة.. لقد كان الإسخريوطي على وشك الموت والآن يعود للظهور أمامه من جديد ليجعله يعود عن ذلك الطريق.. ربما كان مرسَلاً له برسالة حتى يعود.. ماذا إذا رفض؟ سيموت.. يعلم.. إذا رفض سيموت.. استدار.. تطلع إلى وجه زوجته.. أحبها.. يعلم ذلك.. نهض من فراشه واتجه نحو العلية.. كان يعلم أن عليه العودة ولا يمكنه الفرار من وجه السيد.. هكذا قال له الإسخريوطي...

سلك درب العودة إلى طريق الجبال حيث ينتظره إخوته.. اختفى الإسخريوطي في الطريق.. لايعلم أين ذهب لكنه أكمل طريقه إلى الجبال وكهوف الزيلوت...

تطلع يوحنان إلى الأعلى.. قال: شكرًا لك يا سيدي لأنك أعدتني إلى بيتي.. عاد إلى الجبل وتلك المرة أرسلت معه زوجته ثامار ما يكفيه من الطعام وما يكفيه من العبيد لأجل خدمته.. حضر معه ولده الصغير، قال لها: حيث مكان أبيه وما سوف يرث...

نحو جبل جزريم تقدم يوساف.. تبعته الجموع حيث تقدمة الصباح.. منذ أن حدث ما حدث في المدينة وخاف أهل الجليل العودة إلى الهيكل..

فقدموا إلى هيكل جزريم.. هناك استطاع يوساف أن يحقق حلم والده الذي فشل في تحقيقه بأورشليم.. ابتسم راضيًا وهو يقدم بتقدمة أضحية الكهنة ومن خلفه الشعب.. لم يستطع ترك تيبي بعد أن رحلت من خلفه.. علمها هناك حيث تقدم حيث السيد على جبل جزريم...

لعنه أبوه.. لكن والد زوجته السامرية أخبره أنه هنا سوف يستمع السيد، فهناك كف عن سماعهم بعد أن قدموا للإمبراطور منذ زمن ولم يلتفوا من حول الزيلوت وتركوهم وتآمروا ضدهم..

كانت كلمات الإسخريوطي تتردد في أذنيه.. الغيورون بحاجة إلى قائد.. صوت طيور البحر إلى جواره، يجلس على طرف قاربه يراقب الشبك الذي ألقى به منذ قليل في الماء، ينتظر أن يحصد منه الكثير ليتمكن من بيعه بسعر مرتفع.. حدث نفسه: عازر البائس ماذا تفعل هنا؟ من هربت من وجوههم قد رحلوا، لِمَ تنتظر؟ الزوجة والأولاد يمكنهم أن يأتوا إليك وقتما تشاء، هناك وسط الجبل حيث حياتك الحقيقة.. وأي حياة كنت قبل أن تنضم إلى صفوفهم.. أنسيت كم حربًا دخلت لأجل رب الهيكل.. كنت تدافع عنه وعن مشيئته لسنوات تحت سقفه.. أيعقل أن يكون الإسخريوطي مرسلاً لي من قِبَله حتى أستفيق من غيبوبتي؟ أنام لأستيقظ لأقوم بالصيد ولكني لست بصياد سمك.. أنا أصطاد الغرباء وأخرجهم خارج المدينة، هكذا فعلت لسنوات وهكذا علموني.. تذكرت ذلك الشيخ العجوز الذي قضى سنوات من عمره في الجبال بعيدا عن أي شيء يربطه بالعالم.. كان يتجول حاملاً فأسه على ظهره.. لا يمتلك سوى

جلباب أبيض ويعيش من عمل يديه.. يوم أن علم بحصار الهيكل وقتل الثوار.. حمل فأسه ولكن تلك المرة هبط للمدينة.. لم يكن بمفرده، من مثله في الجبال هبطوا معه وحاربوا بفؤوسهم حتى قتِلوا جميعًا من أمامك.. أنسيت أنك كنت عبدًا؟ لولاهم لبقيت في الحمامات أبد دهرك.. انهض.. قُم.. هذا ما أنت عليه، لا يمكنك الهرب أكثر من ذلك.. حياتك ارتبطت بهم وموتك يجب أن يكون هناك وليس هنا.. كان المساء عندما حزم حاجياته خلف ظهره.. ولم يعد ينظر لنظرات زوجته من خلفه ورحل إلى حيث بدأ....

تزوجت حنة من سيدها بعد أن أعتقها.. أرادت الحرية وكان عليها دفع بعض الثمن لتربحها.. علمت كيف تكون الأثيره عند سيدها.. كانت على وشك وضع صبي.. علمت أنه سيكون صبيًا، كل البشائر تقول ذلك.. تباهت أمام سيدتها.. ولم يبالِ زوجها بزوجته الأولى.. كانت حاملة لصبي.. وليس فتاة.. من سيخلد اسمه في هذا العالم وعلامة رضا السيد عنه بأن يعطيه نسلاً يرثه ويحمل اسمه.. كانت حنة تعلم بسعادته فأمعنت في ذل سيدتها القديمة حتى حملت كتاب طلاقها...

اقترب منها.. أراد تحطيم عنقها.. شهقت.. تطلعت إليه جيدًا.. نظر.. حاول أن يكمل ما أراده لكنه لم يستطع.. تراجع.. سقطت على الأرض.. جاهدت حتى تعاود التنفس.. تراجع نحو جدار الخوص، تطلع إليها.. حاول أن يغمض عينيه.. أن ينساها فلم يستطع.. حاولت ثيودورا الوقوف مرارًا وهي تسقط وتعاود النهوض مجددًا.. كان يراقبها وهي تنهض لتقف أمامه..

اقتربت من وجهه وتطلعت إليه تتفرس ملامحه جيدًا.. لم يكن هذا شيماي الذي عرفته سابقا.. كان وجه خائف يريد القتل.. كان يحمل ما حمله وجه يوساف منذ زمن وأخبرتها عنه تيبي، قالت لها إنها مسرورة أنها ليست مثلها ولم تعشق مثلها غريبًا.. ولكنها فعلت.. أخطأت وفعلت.. همت بالخروج.. أسرع وأمسك يدها يجذبها للداخل.. أغلق باب الكوخ جيدًا.. كان الصقيع عاد بعد أن توقف لموسم من قبل.. سيعود الزرع أيضًا بعد الجفاف وتزدهر المحاصيل.. كان هذا العام موعد عودة سيدتها إلى هناك، عندما علمت ثيودورا أن سيدتها ستعود إلى الإسكندرية.. شعرت كأنه حجر يسقط داخل فراغ قلبها.. فراغ لم تفهم معناه إلا عندما عشقت شماي.. عشقت الغريب لكنها لم تهتم، واليوم علمت أنه لا يمكنه أن يحب لونًا مخالفًا للونه.. وبلدة أخرى.. لم يكن تاجرًا، هكذا أخبرها عندما سألته لما لا يرحل، تعلم أن أبناء جلدته هناك يعيشون حيث ولدت هي.. قالت له: فلنرحل عن هنا بعيدًا، هناك لن ينظر إلينا أحد ولن يحاكمك أحد.. سأعتق.. سأعتق ونصير أحرارًا..

ابتسم في سخرية: أنا لست مثلهم، أنا حارس.. حارس أتفهمين؟ خلقت كما يقول أبي لأبقى حارسًا.. إذا رحلت يموت كل شيء.. لا يمكنني أن أغادر هنا يوما، على أحدهم أن يبقى.. أكمل بحزن: وأحدهم هذا هو أنا.. أنا ومن مثلي..

١٢

في السوق علمت وسمعت الأخريات يقولن عنها إنها نجسة.. عندما سقطت المرأة العجوز أمام دكانها وأسرعت بحملها.. كانت قد توفيت.. علمت لغتهم.. يقولون: ماتت ونجستها، لقد لمست المرأة المسكينة بيدها.. كانت تصرخ.. تطلب منهم المساعدة، وقفت الأخريات من بعيد يتطلعن.. لا لن نلمس الزانية.. علمت أنه مثلهم في النهاية سيرحل.. لكنها ربما ترحل خلفه مثلما فعلت صديقتها.. هل هي سعيدة؟ قالت لنفسها نعم لأنها مع من أحبت ورحلت خلفه.. ماذا يهم؟ قالت لنفسها تيبي أشجع منك.. لقد اختارت.. أما أنتِ فاعتدتى خيارات السيدة لك، لم يعد بإمكانك الاختيار بمفردك.. لا بل أصبحتِ تعشقين ذلك، تحبين من يختارون عنك.. السيدة قالت الخياطة ففعلت لسنوات.. قال هو لك زانية نجسة وعدتِ إليه.. ربما يقتلك وستفعلين نفس الشيء.. كانت في حضنه لكنها همست لإيزيس أن تنقذها ولا تدعها تهلك...

كان يراقب عازر من بعيد، يعلم أنه لا يستطيع أن ينافسه على الرجال الغيورين الآن، يعلم أن وقته لم يحن بعد وهو يعرف كيف ينتظر بصبر..

جلس يوحنان بالقرب من عازر على قمة الجبل.. جبل الجليل.. بعيدا عن أورشليم.. كان يستمع إلى عازر، كان يصرخ في رجاله القدامى رجال

الغيور.. والمنضمين الجدد.. كان هناك الكثير من شباب المدينة ينضمون إليه بعد أن سمعوا بعودته.. راقب يوحنان نظرة الغرور التي تنامت إلى قلب عازر.. وابتسم فبادله عازر الابتسام.. كلاهما يعلم أنه خان الغيور وولديه من قبل وأنه لولا الحاكم لكانا مقتولين بأيديهم الأن وأن الصدفة هي من أبقت عليهما من جديد.. كلاهما يعلم الآخر جيدًا، لذا وقف عازر وسط رجاله وهو يمد يديه ليوحنان قائلا: هذا هو قائدكم الجديد.. ورجلي.. خلفه ستعيدون الخوف إلى القلوب.. سيهبط خوفك على الغريب وعلى اللئيم وعلى كل كاهن وتاجر يقف معهم.. لا تخافوا سيدكم راضٍ عنكم وكذلك الشعب.. الشعب الفقير والبائس الذي طحنوه لأنهم يريدون خير تلك الأرض لهم.. أتعلمون أن لديكم حربًا نبيلة؟ هي طويلة ولا أعدكم متى ستنتهي.. متى سيخرج كل غريب.. متى سيرحل الروم..

متى سيرحل كل من يعيشون في الأراضي من حولنا.. أتذكرون أنها لنا نحن وحدنا ؟ كيف أبقينا عليهم هنا في الجليل؟ والعشر مدن وهناك في غزة.. حتى هنا في قلب أورشليم هناك غرباء.. غرباء بيض وغرباء سمر اللون.. غرباء لا حق لهم في العيش هنا.. نحن لسنا كما كنا فلن نستطيع أن نخيف الروم الآن.. ولكننا بالتأكيد نستطيع أن نسحق قلوب البقية من الغرباء من الجليل والسامرة وأدومية وغزة وكفر ناحوم ومجدل.. حتى طبرية.. وسنصل إليهم أيضًا في قلب بيتهم هناك حيث قيصرية.. كان عازر يصرخ والرجال من خلفه شاهرون خناجرهم والسيوف التي سرقوها من

جند الروم.. نعم نحن من خلفك.. نعم لن نبقي على غريب على تلك الأرض... سنحقق ذلك الحق .....

كان مختبئًا ينتظر دوره في الظهور، هناك خلف القافلة، كان صوت صراخ النساء يصله، كان يعلم أنهم رجال عازر عادوا للخروج مجددًا، هو أيضًا عندما علم هبط من مجدل، كان الطريق أمامه، لا لم يحن الوقت لظهور وجهه بعد، اقترب قطاع الطرق من آخر القافلة للرجال الباقين منها، وضع شاله ولثّم وجهه وأخرج سيفه، كان سيفه حادًا وقاطعًا، اشتهر بضربته القاسية، لم يستطع اللصوص الوقوف أمامه لكنه فضّل التراجع، لم يحن وقت الظهور بعد...

تراجع أبشالوم إلى الخلف حيث اختبأ من جديد، اكتفى قطاع الطرق منه حاملين معهم غنائمهم والنساء إلى الجبل.. كان طوال الطريق يسمع أصوات خوف الناس من رجال عازر الذين هبطوا إلى المدن ودخلوا البيوت، ومن لم يستطع الدفع لهم قتِل وأخذت نساءه وبناته إليهم...

عاد إلى قطيعه حيث تركه، جلس بجواره وأخرج الناي، عزف لحنه الحزين من جديد، يغمض عينه فيعود لتذكر تلك الليلة التي لا ينساها أبدًا، ولا يعلم كيف نجا، كلما أمعن التفكير لا يدري من أنقذه.. بالكاد يتذكر ملامح أهله.. يتذكر ذلك البيت المفتوح.. يتذكر ركضه وعمله بالحقول.. يتذكر سيره خلف والده وهو يضع ما جمعه من الحقل ويبيعه في السوق.. كان يقول له نحن لا نبيع ولا نشتري من الغرباء.. ابتعد عنهم ما

حييت ولا تجلب علينا الغضب.. افهم.. هم مثل أبناء الجبل والسامري كلاهما مكروه من السيد ولا يحق لك الحديث أو الاقتراب.. أتفهم؟ كان يومئ برأسه.. خائف من تلك الكلمة.. غريب..

كان نائمًا بعد أن حل الغروب كعادتهم.. استيقظ على صوت هادر.. دخلوا إلى غرفتهم.. رآهم يحملون أباه وأمه.. كانت تصرخ وتحتضنه.. سمعها تترجى: اتركوا الصغير.. أصوات الجموع الغاضبة لم تسمعها.. ساروا إلى نهاية الطريق.. مروا على الحقول، شاهدها.. نظر للخلف يبحث عن بيته ولكنه اختفى عن ناظريه..

رأى الحفرة الواسعة، سمع صراخ أمه، حاول أبوه أن يترجى، رأى عجوزًا يقف على اليمين، كان يقرأ من رقع، قال: مذنبان، هكذا يقول السيد، ازداد صراخ الجموع.. ألقوا بهما في الحفرة، أيدي الجموع تجاذبته هو أيضا.. كاد أن يسقط معهما في الحفرة.. رفع عينيه يحميها من التراب القادم، أغمضها وهو يشعر بيد تجذبه بعيدًا، يد امرأة حملته.. صوت الصراخ ورياح الأتربة لم تمنعهم، ألقوا بحجارتهم.. فتح الصغير عينيه.. كان من بعيد يشاهد الحلقة التي التفت حول تلك الحفرة، كان صوت صراخهما يصل أذنه والمرأة تركض به بعيدًا عن أعين المتحلقين....

كان يعلم أنه غريب.. غريب يعيش مع غرباء.. هناك في المدينة المطلة على البحر سكن.. سكن مع المرأة ورعى غنمها، ولكن عندما سمع الرجال في ساحة غروب يوما يتجمعون لأنهم قادمون.. أقرباؤه.. لم يلتفت.. وجد نفسه وسط الغرباء.. تعلم حمل السيف منهم.. كانوا ينظرون له بخوف.. لم

يصادقه أحد من قبل سوى تلك المرأة التي ربته.. قال لهم أنا معكم.. خذوني معكم أحمي بيتي وقطعان غنمي من لصوصهم.. إنهم لصوص، نعم لصوص.. وضعوه في الأمام، فإن كان خائنا فسوف يقتلونه هم بأيديهم.. لكنه أشهر سيفه.. سيفًا لا يدري متى تعلم إمساكه.. يده لم تحمل سوى الناي ولم تتعلم سوى عزف ألحانه.. لكنها صمدت.. بل وقتلت.. قتلت منهم الكثير.. كان لا يتراجع عن أحد منهم.. كان يعلم أنهم نفس لونه لكنه كان يقتلهم بنفس القدر الذي كان يعلم به أنهم من نفس لونه.. لم يرحم منهم شابًا صغيرًا أو رجلاً كبيرًا، من وقع تحت يديه فقد وقع.. حتى دب رعبه في قلوب لصوص الجبال.. وعاش وسط الغرباء كغريبٍ مثلهم، اطمأنوا له وأمِنوا منه الغدر.. لكنه حزن عندما قتل الشاب الذي قتل، يعلم أنه أيضًا غريب عنهم.. مات بسببه إخوته.. ولكن الحاكم عاد وانتقم منهم.. كان فقط من استل خنجره وقتله وسط الزحام على طريقتهم في الجبال.. وكان يعلم أنهم لن ينتظروا حكما من حاكم فقتلوا من قتلوا.. غضب ولكن عندما عاد الحكام لهم ابتسم.. كان يراقب الجند يحاصرون المدينة، كان يعلم أنه يصعد إليهم ويقتل منهم.. تفرق أهل الجبل وقتِل أبناء الغيور.. كانوا من قتلوا والديه وإن لم يحضروا المحكمة بأنفسهم.. الآن قتلوا.. وتفرق أتباعهم.. عاد لقيثارته وغنمه يرعاها.. كان ليبقى هكذا أبد الدهر لولا أنهم عادوا.. وسط السوق صرخ الرجال: عاد قطاع الطرق وسرقوا التجارة على الأبواب.. علم أنهم يسعون خلفه وأن مدينته ستكون الهدف.. عاش وسط الغرباء ولم يكن غريبًا.. في الليل نام جوار غنمه.. رآهما.. كان يرى وجه والديه مبللاً بالدموع.. كان حصار الهيكل على مسمع أهل المدن المحيطة.. عندما

استيقظ ترك غنمه ترعى في المرعى وذهب.. كان أهل المدينة محاصرين لم يكن هناك سوى الجبال.. صعدها.. وعندما رآى من تبقى من الرجال الهاربين.. أخرج سيفه.. قال لهم: السيد أرسلني اتبعوني لنخلص أبناء جلدتنا.. فتبعوه.. قتل من وجدهم من الغرباء.. عرف عنه أن ضربة سيفه القوية لم تخذله من قبل.. ضرب بها جندًا وقتل بها غرباء.. كان يشاهد أعينهم.. يعلم أنه بقي وسطهم لكنه لم ينسَ أبدًا أنهم غرباء.. كلمات والده تصرخ من جوف الأرض وتحرق قلبه ندما ...

عندما عاد للمدينة التي عاش فيها وجد قطيعه حيث تركه، جلس بجوارهم يأكلون معه من لقمته ويشربون من كأسه، وينامون في حضنه...

علم أنهم يعلمون بمكانه.. أراد أن يبتعد عن قتالهم.. كان أمامه الغرباء من الخلف وأبناء لونه من الأمام، فقال: لأخرج حيث مدينة بعيدة.. سمَّتْ نفسه القتل.. أراد أن يتركه ويعود لقطيعه الذي ترك....

كيف علموا بوجوده في تلك القافلة.. لم ينظر إلى الخلف.. كان طريق الهيكل هو الطريق المعد أمامه.. ركض حتى وجد البوابات مفتوحة.. اندس وسط زحامها، اشترى زوجي حمام ووضع ثمنها في صندوق البوق.. وقدمها تقدمة....

قال: كرهت نفسي القتال أمامك.. يد من أرسلتهم خلفي ويد الغرباء عليه.. بجواره سجد عجوز يرتدي اللباس الأبيض.. عندما همّ بالخروج قال له اتبعني...

كان يرتعد وهو يجلس وسط المجمع، صمت ولم يفتح فاه، ماذا إذا افتضح أمره، ولكن من رآه مات الآن.. كان رئيس الكهنة يجلس على كرسيه بينما مالت جماعة الفريسيين للصمت.. كان أبوه ينتظر دوره في الحديث..

هل يمكن أن نثق بالحاكم؟ الحاكم الذي قتلنا من قبل...

رد رئيس الكهنة: لا تنسَ أنهم لصوص أتوا للقتل.. هذا الحاكم هو من يحمينا هنا.. ولم يسئ لسيدنا، فلِمَ نقف ضده؟

قاطعه والد شماي بغضب: لم يسئ لسيدنا؟ وماذا عن تقدمة الإمبراطور الجبرية؟ هل تظن حقًا أن تقدمتنا لسيدنا في الخفاء والإمبراطور في العلن هي حكمة؟

رفع رئيس الكهنة يده غاضبا: لا تنسَ أنك في حضرة رئيس الكهنة، عد إلى صوابك يا إليشع لا تغضب السيد عليك لأجل هذا.. ما أفعله تنفيذ لما جاء لدينا في السابق.. تذكر عهد آبائك والزم الصمت...

رد كاهن عجوز: ولكن الشعب غاضب.. والغضب المتزايد يجعلهم يتعاطفون مع عازر وجماعته.. عندما يقتلون ويسرقون من الروم ومن السامري والغريب فكأنما ينفذون الوصية ويتبعون الشرع، فكيف نقف نحن صامتين؟ وأنت يا سيدي مسئول عن سلوك رعيتك أمام الحاكم.

رد رئيس الكهنة: لا تقلق.. السيد أرشدني.. وأرسل لي أعينًا من وسط أعدائنا.. نعم هم أعداؤنا لأنهم سيجلبون علينا الموت.. وقريبًا سيقطع الحاكم وجودهم من الأرض...

جلست جواره تتابع عينيه وهما تغمضان، جلست حنة إلى جواره القرفصاء، كان الصبي الثالث الذي لا يكمل أعوامه الخمسة ثم يموت، لم يفلح ما صنعت من سحر بعلم زوجها ومن خلفه، ذهبت لماريا الساحرة ولكن الصبي الثالث مات أيضًا.. سمعتهم يقولون إنه سحر أسود ولن ينقطع عنها.. اشترت تقدمتها.. قدمت وزوجها.. نذرت الصبي القادم للهيكل.. قالت: سأبقيه لديك يا سيد ولكن أبقه حيًا.. عندما حملت في الرابع رحل زوجها في رحلته التجارية.. لم يعد يقربها، سألته البقاء، قالت: يا سيدي لا تترك عبدتك وترحل عنها إنها بحاجة إليك.. لكنه رفضها.. قال لها: ألم تسمعي ما يقولون؟ إنك ملعونة.. نسلك ملعون.. لستِ من بني جلدتي، لقد كذبت عليّ ودنستني.. أبناء لعنة لن أقبل بهم.. عندما أعود إلى هنا تكونين خارج بيتي.. أأتسوّل بابنك؟ صرخت.. لكنه رحل ولم يستمع.....

أتى الصبي، كان ينام وتفتح هي عينيها تحرسه مخافة أن يأتيه ملك الموت فيقبض روحه.. أرادت البقاء ربما استطاعت إيقافه....

١٣

حاصر رجال عازر المدينة.. كانت تسمع أنهم قادمون.. كانت لا تنام لتحمي الصبي.. والصبي نائم.. نفد القمح.. خلعت برقعها وجلست على الطريق ولكن الحصار منعهم من التقرب إليها.. كان الأهالي خائفين.. عادت تنظر للصبي.. كان لا يزال نائمًا.. خرجت في اليوم الثانس ولثالث.. لم يأتِ أحد.. كان الصبي نائمًا.. صرخت النساء في الطرقات على غير عادتهن: لقد قدموا.. إنهم في الطريق.. أغلقوا البيوت.. تركته مفتوحًا.. أوقدت النيران وانتظرت قدومهم.. اقتحم رجال عازر البيوت.. كانوا يسرقون ويحملون من استطاعوا.. أمرهم أن يحضروا العذراوات إليه وممنوع على أحد منهم أن يقترب منهن.. اشتعلت النيران.. جلست إلى جوارها.. كان بيتها مفتوحًا.. رفعت النائم وضعته على الموقد!!...

دخل رجال عازر إلى البيت، شمّوا رائحة شوائها.. قالت لهم: هلموا للأكل.. لقد اقترب من النضج.. انظروا لطعام الصبي.. إنه أشهى طعام.. تناولت قطعة.. عاد الرجال إلى الخلف في تقزز.. أكملت طعامها.. هيا.. كلوا قبل أن ينفد الطعام، إنه آخر ما يوجد هنا، وبعده لن يوجد آخر.. ألم تشتهوا الشواء مثلي؟ اجلسوا.. اجلسوا وتناولوا الصبي....

ارتعشت وهي تفتح المظروف، ابتسمت عندما تذكرت سيدتها الصغيرة وهي تتعلم الحروف اليونانية، عزيزتى ثيودورا ....

أتمنى مثلما أخبرتك آخر يوم أن أراكِ مجددًا، تعلمين نحن معًا منذ كنا صغارًا، ولكننا افترقنا، علمت أخبارك ولا تسألي كيف فعلت فلا أضمن أن يصل الخطاب ليديك، قطّاع الطرق لم يتركوا قافلة إلا وهاجموها.. وأنا يا عزيزتي لا أثق إلا بمن منا، لا تتعجبي، تعلمت أنا أيضًا قولها هنا مثلما كانت تفعل سيدتنا من قبل، هنا لم يعد لي سيدة... لكني لست حرة.. لست حرة ثيودورا.. أخاف ظلي.. أخاف من أن يلمحني قاطع طريق فيسرقني لسيدة أو أكون غنيمة نفسه.. أعلم أنك الآن ستتساءلين عنه وتقولين أين حبيبك الذي هربت لأجله؟ أين سيد قلبك الجديد الذي ضحيت ببني جلدتك لأجله؟ من أعطاك الحب وقال إنه سيبقى أبدًا.. عزيزتي لا شيء يبقى أبديًا كله يرحل مع الرحيل.. سمعته يقول يومًا إن كل شيء يرحل مع الريح ويضيع ولا يبقى له سوى الولد.. الولد الذي يبقى ذكره.. وأنا مثلما يقول لا يمكن أن أصبح يومًا أم ولده.. سأرحل ثيودورا.. نعم سأرحل من هنا.. أرسلت لأودعك وأتمنى أن تكوني الآن تقرأين خطابي لأنك عندما تفعلين تلوحين لي من بعيد على الشط حيث ترحل سفينتنا من هنا إلى حيث ولدنا.. من حيث أتينا فهو الأبقى.. يا عزيزتي لا تخافي لأني لن أكون وحيدة.. استطعت أن أحصل منه على شيء.. أخفيته عنه لسنوات.. صبي.. صبي يافع.. ما تبقى لي.. لست آسفة على أني أحببته أو على ذلك الصبي.. من يعلم من سأرى في مدينتي؟ أقصد مدينتنا.. يقولون إن شوارع الإسكندرية تشبه تمامًا روما، هناك لن أكون غريبة.. سأحصل على أرض لي ولولدي.. وسأحصل على حريتي.. أنت أيضًا يا عزيزتي.. ارحلي.. ابحثي عن حريتك ولا تعودي إلى هنا مرة

أخرى.. هنا ليس لنا.. هنا ليست لأحد فلن يبقى أحد فيها.. تعلمين؟ هو قالها لي مرة وكان مصيبًا.. قال إن الأحجار ستسقط، لن يبقى حجر على حجر فيها لأنها لم توضع سويًا معًا.. ولم يقم صانعها بمزجها جيدًا لذا ستسقط.. ومن معها أيضا.

هناك سأكون سيدة.. أعدك بذلك.. وأعدك أيضًا أنك لو أتيت لي.. ستكونين سيدة حرة أيضًا مثلي.. سيكون لدينا بيت وأسرة.. وتعلمين سأقتني لي عبيدًا أيضًا.. لأنني هنا علمت أن الطريق الوحيد الذي أصبح فيه سيدة هو أن أقتني لي العبيد....

احتضنت ثيودورا رقعتها الجلدية.. خبأتها بإحكام حول وسطها.. هناك يوجد لديها مدينة أخرى تسعى لاستقبالها.. أيعقل أن تتحرر؟ أم أنها أوهام.. أوهام عبدة تتمنى الحرية وستكتشف أنها لاتزال عبدة.. وما فعلته إلا أنها أنجبت لمدينتها عبدًا آخر.. عبدًا سيكرهها عندما يكبر ويرحل عنها وإذا أصبح سيدًا يومًا سينكرها.. سينكرها أمام الناس ولن يقول تلك أمي.. بل سيقول تلك أمَة.. تلك عبدة أنا لا أعرفها.

وضع عمامته وعليها الشريطان، الأول بنفسجي والآخر أبيض، وضع درع الكهنوت على صدره، وأطرافًا مطرزة بأشكال الرومان، وتدلت منها أجراس ذهبية، واضعًا حول عنقه سلسلة ذهبية تتدلى على درع الكهنوت.. في ذلك اليوم كان رئيس الكهنة يتحضر للخروج من الهيكل بعد أن قدم التقدمات ومن خلفه الكهنة.. تحلق من حوله الفقراء لايعلم

كيف خرجوا فجأة ووقفوا أمامه من كل الجهات.. حاول الكهنة المحيطون به صرفهم عنه.. دخل وسطهم أعرج.. مد يديه يطلب إحسانا.. زجره أحد الكهنة وأعاده إلى الخلف.. أحاط به الكهنة محاولين كسر الحلقة من حولهم.. سمعوا صرخته، سقط على وجهه وسطهم بينما هرب الأعرج!! ركض أبشالوم ومن خلفه سمع صراخ المحيطين بالهيكل.. قتل رئيس الكهنة.. قتل رئيس الكهنة.. عاد الخوف للمدينة من جديد.. مدبّر أمورهم مات..

وقف أهل الجبال يستطلعون الغريب القادم.. أخبروا عازر أن هناك شحاذًا صعد للكهوف ليراه.. خرج من خلفه يوحنان يراقب ما يحدث من بعيد...

كان أبشالوم أمام عازر كان يعلمه.. كلاهما يعلم الآخر.. تقدم أبشالوم وركع أمام عازر.. قال: لقد قتل عبدك رئيس الكهنة الخائن فإذا لم أجد حسنا في عينيك فلتأمر بقتلي بيد أصغر عبيدك هنا.. وإلا فأكون لك عبدًا مخلصًا ما حييت....

راقب عازر أبشالوم الساقط أمامه على وجهه.. كان عليه إما أن يقبل عدوًا بجواره يقاتل معه أو يترك عدوه يتجول بين يد أعدائه....

صعد أبشالوم وارتدى ملابس الغيورين وحمل خنجرهم.. عيون الغيورين الغاضبة راقبته في صباحه ومسائه.. كان مكروهًا لكنه لم يبالِ.. عندما سأله يوحنان لَمَ لَمْ يهرب؟ لِمَ أتى ليد عدوه وهو يعلم؟

قال: إنها إرادة.. حثته على أن يأتي وينفذ مشيئتها وأنه يسير بإرادتها هي وليس إرادته...

تبعه من تبعه.. ارتدى اللباس الأبيض وحول خصره الخنجر.. التف من حوله حملة الخنجر وتبعهم العامة.. كان الفقراء ينتظرونه هناك بالأسفل.. أسفل الجبل.. أي كلمة منه كانت عهدا وميثاقًا بينه وبينهم...

كان بيتها مفتوحًا ولكن الرحى توقفت.. جلست ماريا أمام البيت على الطريق تستجدي ما تسد به رمقها.. هجرها الجمال والحب.. وهجرها الناس.. منذ يومين كادت أن تموت وهي تحاول شراء بعض طعام من السوق.. التفّت حولها النسوة.. نسوة بلا وجوه.. ساحرة.. ساحرة.. ارجموا الساحرة.. تستحضر الشيطان، بسببها وبأمثالها جنت على أورشليم، لم يعد يستجاب لنا وألقي بنا في يد أعدائنا أكثر.. كثر الغرباء وسطنا نعموا بالخير والراحة ونحن نزداد في العذاب والجوع.. كانت تُجَرّ للرجم وبيتها مفتوح أمام من استطاع أن يحمل القمح والطعام.. حتى العشب أخذوه.. تركوا خرابًا مفتوح الجهات يستجدي العطاء...

كانت تهذي، تسمعهم يصرخون وهي تحاول أن تلملم ملابسها الرثة ورائحتها الكريهة، كانت بالأمس ماريا والآن صارت شبحًا.. شبحا لامرأة كانت عليها، لا.. لا.. لم تكن عليها أبدا من قبل.. كلما ذهبت لواحد منهم صنعها وشكّلها مثلما يريد.. وافقت واضطرت للعيش.. ما خطيئتها تلك

المرأة؟ آه.. نعم فعلت فعلتين؛ الأولى كانت الحب.. هي أن تحب فلاحًا.. فلاحًا زارها في بيتها.. وكانت طبيبة والخطأ الأكبر لديهم أنها كانت امرأة، فلا يحق لها.. لا يحق لها.. لم تكن طبيبة، قالوا مشعوذة تدواي بعمل الشياطين أنفسهم، تستحضر من كل جنس تبغي قتلهم لأنها ملعونة والثانية أفدح، قال زنت.. خرج عليها رجلان قالا إنهما شهدا شهودًا رأوها.. شاهدوها معًا.. قالوا: البيت مفتوح.. تلك الزانية لا تبالي بالعهود.. أمثالها جلبوا علينا البلاء.. ابتسمت.. من خلف الباب جلسوا ليشاهدوا.. يراقبونها.. هل كان عليهم رؤيتها.. دائما ما كانت تقع تحت أيدي الناس.. دائمًا ما نظرها أحدهم.. تحسرت.. تذكرت كوثوبانوس.. ليتني رحلت معك.. هل تتذكرني؟ أم أصبحت عجوزًا مثلي؟ لا. إنك لن تكبر أبدًا أو تشيخ مثلنا.. مثلك لا يشيخ يا كوثوبانوس ....

أين الفلاح؟ هرب.. ألن يُرجم معها؟ أسيتركها وحيدة الآن؟ وهل فعلت ما فعلت إلا لأنها وحيدة؟ هجرها الجميع.. كان يأخذ بعض المال وهي تقتل بعض الوحدة، لِمَ ينظرون ويأبهون؟ جوعى يسألون الطعام؟ أكلوا طعامها وقالوا الزانية.. ماذا دهى المجنونة؟ إنها تموت وتضحك، تنظر لنا وتضحك.. يا ملعونة نكسي رأسك نكسي رأس الخزي والعار.. لكنها لا تبالي، تنظر لهم وتبتسم.. لا بل رفعت صوتها ورددت أنشودتها:

لأنني العاقر وأولادي لا يحصدون

لأنني الزوجة والعزباء

لأنني الزوجة والزوج

لأنني أم أبي

لأنني أخت زوجي

لأن زوجي هو ابني الذي تخليت عنه

قدموا لي الاحترام

أنا الفاجرة.. أنا النبيلة

تمتمت بأنشودة هي وحدها علمت أنها لإيزيس.. علمها إياها كورثوبانوس قبل أن يرحل.. قال إنها لإلهته الأم.. قال لها عندما يمضي الزمن وتقرر أن تأتي إليه.. ما عليها سوى أن ترددها وهو سوف يجدها، سيجدها ويأتي لنجدتها.. رفعت صوتها أكثر.. بحثت بعينها عندما اشتد الألم علّها تجدها.. جالت أكثر ورددت وهي تبكي علّهم يرحمونها ويخففون من الألم.. قالت: كفى ألمًا.. لم يستمع أحد.. شعرت بأن الألم ازداد، بأن أيديهم قويت أكثر عليها.. لا تدري كيف حدث هذا لكنها لم تعد تشعر بالألم.. هل أتى كورثابانوس حقا وأنقذها؟

لا تعلم شيئًا سوى أنهم انصرفوا.. سمعت صراخًا من ناحيتهم ولم تبالِ.. لملمت جسدها المجروح وجرته.. تحاملت حتى سقطت أمام بيتها.. نظرت إلى خرابه وجلست أمامه.. كانت تعلم أن الساعة الموعودة قادمة لا محالة.. سوف تأتي ويختفي كل شيء.. ستحول الكل لبيت كبير مفتوح الأبواب ولا يغلق.. يدخله البرد طوال العام ولن يشعر بالدفء مرة أخرى.

قلت زيارته لها لكنها علمت أنه سيعود.. شيماي دائما ما يعود، هكذا قالت لنفسها مرارًا ولكنها الآن لم تعد لتصبر.. ليتها تستطيع أن تفذ نصيحة صديقتها وترحل معها.. تُرى لو رحلت ربما وجدت أحدًا يعرف أمها.. هل لا تزال حية؟ تذكرت ثيودورا أن وقتًا طويلا قد مضى، أعوام وهي تحلم بها وعدت نفسها مرارًا.. سوف أعود.. سوف أجدك يا أمي وسنبقى معًا إلى الأبد.. سنبقى ونعيش بهناء.. ستعيش من لونها.. ستنسى كونها غريبة أو كانت في يوم غريبة..

آخر يوم رآها.. كان يتحدث عنه، سألته: عمن تتحدث؟ أجاب: مخلّص!..نعم مخلص ينهي كل هذا العذاب.. صمتت.. قال: يأتي ويخلصنا من ذلك البؤس، لم أشعر هكذا من قبل.. ما بين لصوص وغرباء.. تجهمت، هل حقًا يريد الخلاص منها؟ التفت لها وقال بانكسار: لا أدري ماذا أفعل معك، لا أستطيع تركك أو البقاء معك.. ربما ينهي حكايتنا نحن أيضًا معه.. عبست، ربما لأنني أكبر في السن وأعوامًا قليلة وسأصير عجوزًا، أعلم أنكم تتزوجون من فتيات صغيرات.. لهذا الآن أصبحت غريبة.. ابتسم: ثيودورا لو استطعت أن أتخلص منك لفعلتها منذ زمن.. أقدم عن الناس وأقف هناك أمامه في العلن أطلب لهم مخلصًا وفى السر أطلب مخلصًا لنفسي، أشعر بالخوف.. إذا مِت هل سيعاقبني بحبك؟ قولي لي.. ردّت: قل لي أنت ماذا فعلت؟ لقد تبعته لأجلك.. صرت كواحدة منكم، لم لا تصدقني؟ هل لو قلت له يا سيد لن يصدقني؟ ولكن

لِمَ؟ سأقولها وإذا رفضها فليخبرني ولكن لا يتركني حائرة.. ربما.. ربما إذا فعلها ورفضني أعود لمن أعرفهم.. سيقبلونني، نعم سيفعلون... عبس بوجهه أبعد يدها التي أحاطت صدره.. نهض من الفراش، نظر إليها وارتدى ملابسه ورحل...

لما قلت له ذلك كان عليه الصمت.. الآن رحل.. ربما لن يعود...

ظلت ساهدة وعندما عادت إلى السوق علمت أن السيدة تريدها.. هل ستسامحها الآن؟ ولكن الآن لا يمكنها أن تعود.. لا لن تعود.. لكنه هو عاد لا تعلم كيف.. أخبرها أن عليها أن تعود..

لم أستطع أن أكون خائنة.. حتى باسم الحب لم أستطع أن أفعل.. كرهت الخيانة منذ حداثتي وحبه لي لم يغيرني.. هكذا قلت له لا.. لا أعرف ماذا يقول السيد، والسيدة تقول غوغاء فيعبس غاضبًا ويشتم، لا أعلم لغته أحيانا، ربما استخدم لغة أخرى حتى لا أفهمها....

اختفى عني.. ربما رحل... جلست بدكان الخياطة أنتظره ربما يعود، اشتقت لرؤيته.. نعم لقد أصبح لي داءً.. داء لا يمحى من قلبي.. وذلك العجوز.. شيخ عجوز.. يأتي مرة كل عام ولكن تلك المرة طالت مدة بقائه.. كان من غرباء شماي ولكنه ليس قريبي، قال إنه أيضًا من هنا منذ وقت طويل لكنه يعيش في أدومية..

أدومية قال إنها هناك في الجنوب.. عيناه لا تكفان عن النظر لي.. تعلق بي، قالها، لم أخبره عن شماي.. يعرف من أكون، يعرف من أين أتيت.. قال إنه زار مدينتي مرارًا لأنه تاجر.. قلت له: كيف هي؟ قال: أجمل مدن الدنيا بها من كل لون.. وفي حارة لها معبد.. وحسانها ليس أكثر منهم.. قالت: زِد.. قال: بحرها يعلو موجه وعندما يغضب في شتائها يضرب في حنان.. قال: لم أشتهِ طعامًا مثلما فعلت هناك..

ثيابها.. قال إن أصوات أوتارها لا تتوقف.. من كل جنس ولون يعيش هناك كل واحد منهم لديه حارته.. يتاجر ويتزوج.. أطفاله يصرخون من المرح عندما يلعبون.. يذهبون إلى المعابد ويتعلم منهم من استطاع.. قالت: لم ترَ أمي؟ ابتسم: ربما رأيتها وربما أرسلتني بخطاب لك.. ربما قالت لِمَ لا تأتين لرؤيتها.. أنا تاجر وأعرف البحار.. لمَ تأتين معي وترحلين؟ يمكنك البقاء معي بلا خوف.. علمت أن العجوز صادق من عينيه.. وأنه ليس تاجرًا يأتي ليبيعها.. كانت تعلم أن ثمنها صار بخسًا بما كبر عمرها.. لم يكن لديها سوى الخياطة.. فالنساء لن تتوقف عن شرائها....

أين أنت يا شماي؟ لا ترحل وعُد.. لا أستطيع الرحيل من دونك.. كان الشوق استبد بها.. فقالت لا ذهب لرؤيته هناك.. هناك حيث معبده علّه يراني فيحن قلبه...

١٤

استيقظوا على أصواتهم التي عمت المدينة.. لم يشاهدوهم من قبل.. شحاذون يمكن أن يكونوا يحملون الناي والمزمار.. مجموعة منهم تعزف في حلقة، وقف بقيتهم في منتصفها يرقصون.. ماعدا أصغرهم الذي استأثر بالحلقة فكان يرقص.. كان نصف عارٍ يرقص، يلف ويدور.. يرفع يديه إلى أعلى وينخفض بجسده لأسفل.. ردد الراقصون أناشيدهم.. كانوا متحلقين خارج سور الهيكل.. علت أصواتهم.. خرج الكهنة يستطلعون من النوافذ...

رددوا أناشيد.. نادوا الأعالي والمحيطين.. التف الأطفال حولهم.. ساروا وجابوا المدينة.. تحت الطرقات الضيقة المليئة بحارات الفقراء جابوها وهم يغنون ويرقصون ويعزفون..

حفظ الأطفال أناشيدهم.. رددوها معهم ومن خلفهم.. رددوها وسط ألعابهم وانتظروهم.. انتظروهم حتى يعودوا من جديد.. فى البداية كرههم سكان المدينة.. زجرهم المتعبدون عند خروجهم من الهيكل.. أما الكنعانيون والغرباء وبقية الأمم فلم يبالوا بهم، مروا إلى جوارهم وتابعوا طريقهم.

مر وقت حتى نسي الجميع أمرهم لكنهم عادوا مرة أخرى.. تلك المرة ليس بأناشيد جديدة فقط.. بل حكايات.. عزفها المزمار ومثلها الراقص.. مثل

ذي العباءة والكاهن.. الغريب والأممي والحاكم والمحكوم.. تحلق الأطفال من حولهم يحفظون ويخرجون إلى الشوارع والأزقة وإلى المجامع وسط المصلين فينطلقون مرددين، هكذا وصاهم الراقصون.. تحملوا العقاب في مقابل الحلوى التي يحصلون عليها من المزمار والراقص.. تحملوا حتى يمسكوا بعرائس خشبية لم يروها من قبل لأنهم يعملون إما في الحقول أو الحمامات أو عند الدكاكين ليساعدوا أهاليهم في سد الرمق بعد أن شح الخير في المدينة.. ومن خرج منهم باتجاه الجليل أو أدومية أو غيرها من البلاد.. نفروا منه وطردوا من تبقى من أهله.. نعتوه بالنجس الطريد..

ازدادت القصص.. تأتى كل بضعة أيام.. ولكنها لم تعتد التفاف الأطفال فحسب بل جذبت الرجال أيضًا والشباب.. حكى المزمار عن الشباب والهيكل.. قام الراقص وأمسك عصاته.. رفعها أمامه، كانت كالسيف.. رقص من حول الصندوق.

قالوا: هيا هيا شاب غيور.. أمسك عصاته وطرد الملعون.

هيا هيا شاب غيور.. قطع النجس وصار معه الإله كالمحبوب.

من كان محبوبًا.. من كان محبوبًا.. لا يعلمونكم أن هناك طريقًا آخر.. وهيكلاً آخر.. سيروا سيروا باتجاه.. هناك هناك بالأعلى سيهبط سيكون هناك.. سيأتي وتسيرون خلفه...

هل حكينا لكم حكايات المغامرين؟ الذين تركوا الأرض.. تركوا تركوا وصعدوا.. هناك الأعلى.. يعيشون لأجلكم.. هل تعرفون الكرماء الذين يرحلون عنكم؟ يجلس الراقص في المنتصف جاثيا على ركبتيه فقد مثل

على المزمار المتحمس عندما سقط سيفه.. راقبته حتى الفتيات من خلف برقعهن.. لم ينتبه إليهم أحد.. الكل كان يسمع قصة الراقص والمغامر والمزمار.. قالوا لم نعد شحاذين نحن مرسلون..

قدامهم نسير.. نقول لكم لقد جاءوا لكم فلا تتركوهم لا تتخلوا عنهم.. يسيرون في الشوارع ويتحلق الناس من حولهم.. والكهنة يراقبون من أعلى هناك ولم يهبط أحد للأسفل.. يصمتون ويشاهدون الأطفال يرددون الحكايات.. أعاد لهم الراقص وصاحب المزمار الحكايات القديمة.. حكى لهم الراقص قصة جده الفلاح الذي ترك الفأس وحمل السلاح والآخر في أعالي الجبال ترك السلة ترك الخبز وحمل خنجره عندما دعاه الجد الفلاح... بكوا مع أطفال قاطني الجبال الذين لا يشاهدون والدهم.. وقف الراقصون في منتصف الحلقة حزانى يكملون قصة المغامرين في الجبال وهم يسيرون إلى حتفهم حيث هلاكهم الجماعي الذين اختاروا أن يكون في أعلى الجبال حاملين معهم أطفالهم تلك المرة... عزف الناي الحزين.. بكى الرجال والنساء.. رفع الأطفال أصواتهم في حماس وداروا ولفوا... يخبرون بالحكايا كل من لم يسمع بها...

خرجت "سالومي" لترعى غنم زوجها.. كانت تحرس قطعانها جيدا.. وتجلس جوار بئر المياه تحاذر من أن يأتيها راعٍ آخر يفكر في النيل من مياه قطعانها.. كانت سالومي طويلة ورفيعة سمراء.. تغطي رأسها كاشفة وجهها.. ليست مثل بقية نساء المدينة..

كان يوم الحصاد والحب وفير.. وعيد الخمر يقترب بعد ٥٠ يومًا من الحصاد..

كانت تقف على بئرها كل يومٍ تسقي غنمها.. عندما يأتيها راعٍ آخر يحاول أن يسرق مياهها تطرده.. تطرده بقطعانها.. تنظر إلى البئر وتذكر القادمين من تلك المدينة على الناحية الأخرى.. تلك المدينة التي خرجت منها وزوجها هاربين فيما مضى.. لا تزال تذكره كلما جلست جوار هذا البئر.. كان يأتي كل يوم ليسقي.. ليس له أغنام مثلها، كان يأتي لرؤيتها.. كادت في أول يوم تراه أن تخرج عليه خنجرًا أخفته في طيات ملابسها، هي ليست كالمرأة الأخرى التي يعرفها في المدينة.. لم تتصادق مع أي منهن لم يحببنها أو تحبهن، كن يثرثرن بشأنها: المرأة الغريبة.. الكنعانية الخبيثة.. لم تطق العيش واستحالت الحياة على زوجها.. زوجها الذي لم ينسَ يومًا أرض أجداده التي ترك.. عندما أتوا لجده كانوا جيرانًا والآن في عهد حفيده يتقاتلون على الماء والزرع ويقولون غرباء!!...

كانت تعلم أنها رأته وشاهدها ذلك اليوم.. هناك في البهو في المعبد الواسع حيث هيكلهم.. كانت ترقص.. ترقص هناك أمام آلهتها.. كان الموسم والحصاد يمو وتقدمته واجبة.. وقفت غير مبالية، كانت بقية النساء من بني جلدتها والغريبات يخشين نظراتهم المتربصة لكنها لم تكن تبالى.. منذ طفولتها ترعى الغنم، تعلمت كيف تدافع عن قطعانها.. هي أيضًا لديها تقدمة.. كل الأعوام الماضية لم يصبها الخير لأنها لم تكن تقوم بالأمر كما يجب..

أشعلت قنديلها ورقصت أمامه في حرارة، رأتها بعض نساء جلدتها.. وقفن من خلفها وتشجعن وقدمن رقصتهن.. سمعت سبابًا قادمًا نحوها.. لم تبالِ...

أكملت رقصتها وزادتها حرارة.. وقفت النساء وصفقن.. جاءها بصاق من الرجال.. أحاطهن نساء أخريات، أكملت حتى النهاية.. حينما فرغت أطفأت شموعها ورحلت.. سمعتهم في الطريق.. المرأة الزانية.. رفعت رأسها وأكملت الطريق.. زاد الزرع وامتلأت المخازن بالحبوب وابتسمت هي لزوجها في رضا..

ليتهم بقوا بمصر.. قال لها جدها وهي بعد صغيرة إنهم رحلوا إلى هناك لفترة لم يمكثوا بها طويلا ثم عادوا.. قالوا عليهم أبناء كنعان وبقوا على هذا اللقب لسنوات طويلة.. كانت رحلة اغتراب عندما عم الجفاف أرضهم وبعد الخير عادوا إليها.. لكن جيرانهم قالوا عنهم غرباء.. قال لها إنهم فلاحون وليسوا أهل قتال.. أحبوا الزرع والحصاد والجيران، أحبوا سرقة هذا الزرع ولكن عندما كان والدها صغيرا اتفقوا على أن يعيشوا معًا في سلام دون شجار أو قتال.. كان الطعام قليلا والكل يبحث عنه...

لم تبالِ بصرخات جيرانها وأعادت تقدمتها في مواعيدها.. الآن يأتي ليراها مرة أخرى.. وعندما قامت لتسقي القطيع ظهر أمامها.. من أين أتى؟ لا تعلم.. ظهر أمامها فجأة يتطلع فيها.. كان منهم.. ملامحه مثلهم.. كانت مثلهم تمتلك نفس اللون والملامح لكن نظرات وجوههم مختلفة تخيفها.. وليست مثلهم.. تطلع فيها.. اقترب منها.. أخرجت عصاتها.. تحسست خنجرها..

تراجع.. أنا امرأة حرة ولي زوج.. لم يتراجع، أخرجت خنجرها.. قال: أنت زانية.. انتفضت سالومي.. أنا حرة ولي زوج.. قال أنتِ غريبة.. رأيتك في المعبد.. أنت تزنين هناك لدينا، لهذا حُرّم علينا الخير من يوم أن تركناكم تحيون..

تراجعت إلى الخلف: بل أنا حرة أيها الملعون، عد إلى مكانك وإلا قتلتك.. علمني أبى القتال.. أنا أقدّم لإلهى ولست بزانية.. لي زوج.. ولي أبناء.. دماؤك ستكون تقدمتي القادمة لإلهي إذا اقتربت.. هذا الخراب يأتي عندما تقتلون، منذ أن سكنتم الجبال للقتل والخراب حل على أرضنا.

أي أرض لكم يا زانية؟ أنتِ زانية قتلك حسنة...

أنا حرة ...

أنت مرأة... امرأة غريبة....

رفعت خنجرها جرحت وجهه.. سال الدم.. نظر لها.. رأت الغضب والدهشة.. رأت الخوف في عينيه.. تقدمت رفعت خنجرها مرة أخرى تلك المرة تعرف أين ستطعن. فى منتصف صدره ستطعنه طعنة نافذة... لن تطعن طعنة رحيمة مثلما تفعل مع قطيعها لترحم أحدهم من ألمه.. ستتركه يتألم وتشاهده.. سيدفع ذلك اللص ثمن اقترابه منها.. عندما كانت صغيرة لمحت منهم.. كانوا يرتدون نفس ملابسه، أحاطوا بوالدها الذي وقف يقطف ثمار حقله الصغير وحيدا.. لم يمتلك حقولا ولا عبيدًا بل حقلا صغيرًا ورثه عن أجداده.. ألقوه بعيدا وحملوا ثمار حقله ورحلوا.. ليلتها مات.. كان دم أبيها يغلي في عروقها.. لكنه رحل.. اللص تراجع، علم أنها

ستقتله.. كانت تسمعه في الساحة يطلقون عليه اسم يوحنان.. كانت تزفر وتسخر وتمضي وتسمعهم يحكون عن شدة بأس أهل الجبال...

وقف لعازر من بعيد وسط الجموع ينظر إلى أبشالوم الذي تحلق من حوله الناس.. كان يخرج صوته بكلمات هادئة.. تحدث عن الحرب القادمة.. يكفي غضب السيد يتصاعد، عليكم التحرك.. ترك عدد منهم زراعته وتجارته وجلس يستمع إليه.. كان يقول إنه سيأتي الموعد المحدد ويخبرهم.. إنه عليهم الذهاب إلى هناك حيث الزيتون وانتظار الخلاص.. كان خبر أبشالوم على كل لسان.

خرج من خلفه الصبية.. خرج العازفون والراقصون، كان صوت المزمار يعزف على كلماته والرقص يحدث أمام ناظريه على سفح الجبل..

كان اللحن يدور ويدور على كل الألسنه والجموع تخرج من خلفه.. يبتسم عازر..

خرج في الليل.. تلفح بعباءته وتلثم.. هبط من الكهوف بخفة.. كان زوج من العيون يراقبانه، عيون عازر تراقب الذاهب إلى طريق الهيكل وتتلفح بالظلام لتقف في بهو الهيكل المظلم أمام أصحاب العمامات....

١٥

لِمَ عادت أمامه من جديد؟ لقد رحلت، كانت ذكرى وخمدت، لِمَ يرتفع صوتها الآن؟ انتفض يوحنان من فراشه، نهض حيث الظلام الدامس يحيط به من كل جانب، إلا من ضوء المشاعل الضعيف، نظرات عينيها كانت تبتسم في وجهه بتشفٍ.. كانت تتشفّى وهي تموت!!.. لم يجرؤ على أن يمضي من أمامها، جلس جوارها على الأرض يتطلع فيها.. تلك الكنعانية التي رقصت أمام الجميع واستهزأت به، سخرت منه عندما رفضته ورفعت خنجرها.. كان يمكن أن تقتله.. حتى زوجته لم تجرؤ يوما على فعلها وهي مثلها.. غريبة.. وعندما أحرق ذلك الحقل.. وقتل زوجها.. ظلت تخرج بقطعانها وتقف تمنع رجاله من أن يستخدموا ماء البئر.. في كل المدينة لم يقف أحد أمامه.. الكل خافوا ومن أخطأ منهم نال جزاءه، حتى رئيس الكهنة عندما فعلها وتمادى مع الروم قتِل.. ما تلك المرأة؟ أغمض عينه، تمنى أن ترحل بمجرد أن يعيد فتحها.. كان بيتها هنا تحت الجبال.. تعيش بالجليل.. لم يكترث لها أحد عندما دخل بيتها المفتوح.. لم تتراجع، كانت تعلم أن خنجرها يحميها.. ولكنه لم يبالِ ولم يتراجع.. رفعت خنجرها لذقنه.. تهدد بفعلة تفعلها مع أغنامها عندما يمرض أحدهم ولا يكون له شفاء، تفعلها كي ترحمه وتخفف عناءه، ولكن ذلك اللئيم لا تريد له الرحمة، ستفعلها ولكن بطريقة قاسية...

وضعت حافة الخنجر كادت أن تهوي به.. لكنه سبقها.. منذ صباه وسط الجبال تعلم فنون القتل ودروبه، كان اليد الأسرع والأخف التي تتخفى وسط الزحام وتقترب من هدفها وفى ثوان تنحره.. تنحره بهدوء ودون صراخ.. ترحل ولا يمسها أحد.. لكنها كانت تبتسم.. تبتسم والدماء تخرج من فمها.. تعايره بذلك الدم.. امرأة لم تقف أمامه فقتلها.. امرأة غريبة ..وإلا يكفي كونها امرأة..

هناك كانت ظلال منتظمة تعبر طريق الجبال.. التفت لها يوحنان من الأعلى.. خبأ نفسه حتى لا تراه.. ساروا في صفوف.. لمح من خلفهم أنه هو.. أبشالوم.. ومن خلفه القصير الزمار.. تحرك بخفة ليتبعهم.. كان يعلم أن عازر يخطط لشيء ما مع أبشالوم ولكن أبشالوم وهو أعداء.. هناك من سيبقى وآخر سيرحل وهو لن يكون من الراحلين، إذا كان أحد هو الأحق بهذا الجبل ورئاسته فهو هو.. فقط.

من أمامه سار العازفون يغنون بقصائده وحكاياته. وأبشالوم بالخلف يجلس يختال بنفسه.. تعجب يوحنان من أصحاب العمائم البنفسجية لِمَ يفعلون ذلك؟! رحل الناس عنهم منذ زمن.. والتفوا حول أعدائهم الغريبين.. ولكن هم أليس ينالهم كل ما يوضع تحت أيديهم في الأبواق والأسواق؟ يأكلون ويلبسون وينعمون.. فرضوا أموالاً حتى على الفقير.. ودفعها في صمت..

التف من حوله الفقراء.. خرجوا لأجل رؤيته في المساء خوفًا عليه من أعين الحاكم ورجاله في الصباح.. كان يتحدث وبجواره جلس عازف الناي

والمزمار.. كان يحكي.. صفق بيده فقام الراقص ورقص أمام أصحاب الناي والمزمار.. ارتفع صوته قليلا يكمل الحكايا..

ارتفع صوت المزمار، قام قليل منهم ليرقص.. علا الصوت حتى كان المزمار يعزف وصوته يحكي وأمامه الجميع يرقصون...

كانت عيناى شماي على ذلك الكاهن الشاب الصامت.. كان ابن رئيس الكهنة الجديد، يجلس من خلف والده يسمع ولا يتحدث كثيرًا.. قيل إنه جاء من مناطق بعيدة وأنه عاش بآرام لفترة وعاد ومعه بعض من أهلها يريدون زيارة الهيكل الذي حكى لهم عن سيده فأتوا لتقديم تقدماتهم إليه.. كان جوزيف يراقب المحيطين بوالده.. لمح شماي خنجره الموضوع تحت خاصرته.. زمجر من دون صوت.. إلى هنا وصل الخنجر إلى بيت رئيس الكهنة؟.. كان شماي يعلم أن الحرب على الأبواب والأبواب الواسعة لن تصمد.. كل يوم يخرج الناس مهرولين وتنوح النساء بصوت مرتفع على قتيلهن.. كل يوم هناك قتيل.. خائن.. ليس معهم.. أراد اليوم أن يتحدث معهم عن شماي الذي دخل بالأمس إلى البهو ومن خلفه أتباعه.. وقدموا له النحائر عند قدميه.. غار شماي وكاد يخرج لهم ليطردهم لكن أيدي أتباع رئيس الكهنة منعته من الانفعال وقالت له لا تغضب.. صمت.. كيف لا أغضب.. ذلك اللص خرج من خلفه أتباع وأنتم تخططون لقتال.. لا.. لن يموت غرباء سنموت نحن.. نحن من سيموت.. تمنى شماي لو خرجت الكلمات ولو على غير إرادته أفضل له من صمته الذي أشعر بالذل...

الكل يعلم أن ابن الرئيس من رجال الجبل ألا تعرف؟ استدار شماي نحو غمالائيل.. وقال: ولكن من رسمه لم أرَه يحضر.. رد: يوساف.

صرخ شماي مستنكرًا: ماذا يوساف هناك؟... جزريم.. هل وصل بنا الحال لهذا؟ لقد خرج عن قبيلتنا والتحم بقبائل غريبة، كيف له أن يدخل بقدمه إلى هنا؟

المستنكرون منهم كثر، راقبهم شماي يرددون خلف رئيسهم دون أدنى تذمر.. كان عليه أن يصمت.. أليس بمفرده؟

تراجعت ثيودوا عندما رأته.. لا تدري لِمَ لَمْ تدعه يراها؟ كان ما حدث معها في الصباح يخيفها.. كانت ألكسندرا سيدة صغيرة تعرفت عليها في السوق وأحبت عملها الذي تفانت فيه ثيودورا.. كانت تعلم أفضل الموضات التي تخرج من هناك.. الإسكندرية. كانت زوجة حارس من حراس القصر الحاكم تأتي إليها من قيصرية، كانت ثيودورا الوحيدة التي تعلم بيهوذا.. كان ينظر لها من بعيد.. تشير له فتدّعي ثيودورا عدم رؤيتها.. كانت أخبار أصحاب الحناجر على كل لسان يقطعون الطرقات وينهبون ويخطفون.. كان معلومًا أن للغريبات أولوية لديهم.. حاولت تحذيرها لكنها صمتت.. خافت.. هي أيضًا غريبة وشماي رحل..

كانت في ذلك الصباح ميتة.. لا تعلم كيف وجدتها بالقرب من دكانها.. قاتل رحيم!. يقتل ويريد لضحيته الدفن...

قتلت لأنها غريبة.. فقط غريبة.. اختبأت بعيدًا عن شماي.. كان غاضبا، برغم أنه مر من بعيد إلا أنها تعرفه ...من خلفه كان ولده الأكبر يسير في سرعة متجاوبًا مع أبيه.. كانت المدينة ملبدة بالغيوم.. كل يوم تخرج منهم أعداد كبيرة تتجه نحو الجبل الذي يقال له الزيتون.. ولا تدري ماذا يفعلون هناك، لن تفعل مثل الغريب من عاملي القصر، أرسِل خفية ليكون وسطهم.. لكنه كشف.. قيل إنه كان تقدمة، هناك في السفح أوقدوا فيه النيران...

كان شماي يندب طوال الطريق.. كيف ينتهي الهيكل؟ سيطلقون يد الغرباء إلى الفناء.. كان يتطلع في السماء وهو يمضي- ويسأل، ترى هل سأجد ملاكًا ليدافع عني مثلما حدث مع يوشع أم أنك ستسقط؟ سيسحق كل شيء.. كان يهذي وابنه من خلفه يتبعه وهو صامت.. لم يخبر والده بعد أنه سوف يرحل نحو الزيتون مع كثر.. ليس بمفرده يصدق في أبشالوم، ولِمَ لا؟ هم بحاجة إلى ذلك حقا، إلى من يرشدهم ويتبعونه، كان من الكهنة وابن كاهن ولكن الناس بعيدون جدا والغرباء يحيطوننا حتى كادوا أن يسرقوا أنفاسنا.. نظر شماي نحو ولده، ماذا قلت؟ جفل إليشع، نعم قد يكون أبشالوم محقًا.. هل تخاف على سلطانك أن يزول؟ ماذا؟ ماذا تقول يا إليشع؟ أنسيت أنني أبوك؟

لا.. لم أنس، كذلك لم أنس الغريبة.. هل تعتقد أني لا أعلم؟ لا أعلم أن هناك زانية؟ أتعلم؟ لهذا نعاني ويعاني الناس لأنكم سمحتم للغرباء وقبائلهم

أن يعيشوا.. نعم أن يعيشوا.. هنا لا يمكن أن يعيش سوانا، أتسمع؟ أنا لست مثلك.. سأرحل إلى الزيتون.. أنا أبحث عن الخلاص ولن أكف.. كل الشباب سيذهبون إلى هناك.. هذا الوقت وقتنا وليس وقت الغرباء بعد.. لن نمكث ونحيا مع أمم.. كان عليهم أن يُبادوا منذ زمن.. منذ زمن أجدادنا ولكنهم كانوا مثلك تزوجوهم وأدخلوهم إلى ديارهم وأكلوا من طعامهم وتعلموا منهم التجارة.. كنا رعاة وأصبحنا فلاحين جوار الأرض.. لا نحن عابرون.. وإن كنا هنا فنحن عابرون... ركض إليشع غاضبًا من وجه أبيه، لم ينتظر أن يسمع منه ردًا.. وقف شماي مذهولا وعين ثيودورا لاتزال تتبعه من بعيد.. صمتت، لم يعد هناك شماي، كانت تعلم أنه سيرحل منذ زمن ولكنها تمنت أن يحدث العكس.. كان يقول لها على أحدهم أن يحيا وها قد أتى الميعاد...

لم يفهم الأب، كان يصمت عندما يريد تأديب ولده.. لكن ولده عندما تحدث لم يفهم كلماته، وها هو يعذبه بالصمت مثله.. إنه لا يفهم أباه.. شماي كان يخاف الدمار.. أن يكون وحيدًا، لكنه لم يقلها.. كان يشعر بالقوة عندما ينادي عليه أكبر أبنائه: أبي ..كانت تشعره بالقوة أما الآن فصمت ابنه يعذبه ويشعره بالندم.. بالندم على طيلة الصمت الذي اتبعه معه....

تمتم شماي: آه يا ولدي حتى لو رفعت خنجرًا لتقتلني ستبقى ولدي.....

لكنكم أبدًا لن تفوزوا.....

سار شماي، أخذته قدماه ناحية الكوخ لا يعلم إن كانت هناك تنتظره أم لا.. لكنه تمنى رؤيتها.. تبعته.. فتح باب الكوخ فوجدها.. جلست تبتسم ربما تراه آخر مرة وعلى الوداع أن يكون مثل يوم اللقاء الأول...

وجدها هناك.. تنتظره.. كانت تبتسم.. تقدم إليها.. كانا هناك بالكوخ.. في ذلك الطرف من المدينة.. مضى الجنود على جيادهم بسرعة البرق.. كان قادمين لأجل القاطنين في سفح الجبال حيث يقولون عنه الزيتون.. لم يرفع رأسه ليلمحهم كان يعرفهم ويعلم بقدومهم.. اقترب الحرس تقدموا حيث حاصروا الجبل.. كانوا هناك صرخوا صرخة واحدة وأخرجوا الخناجر من أحزمتهم.. كان صوت الصراخ والقتال.. الأنات والتوجع يرتفع.. كان هناك صبية.. كان هناك نساء وشيوخ.. كان هناك عجزة بحثوا عن سبيل.. كان صوت الصراخ والأنات يأتي منهم سريعا.. كان أبشالوم يتراجع يحاول الوصول إلى أعالي الجبال.. كان يبحث عن الكهوف.. سيجدها ويعود إليها ليختبئ.. لكن ذلك الجندي الروماني لمحه.. كانت هناك مكافأة على رأسه لا لن يعود إلى الإسكندرية لحبيبته خالى الوفاض.. تبعه وتسلق من خلفه.. ألقى عليه الحصى لكنه لم يتراجع، تفاداها جميعا..

ارتفع من أمامه.. لم يكن هناك خنجر معه لقد سقط.. نظر أبشالوم للسيف الذي ارتفع هابطًا على عنقه وصرخ صرخته وابتسم... حمل الرأس معه وهبط لقائد الفيلق.. كان صوت الالتحام لا يزال هناك.. كان شماي يسمع صوت ولده يستغيث بالناس.. بأهل المدينة ليخرجوا جميعا معهم.. ليعاونوا أهلهم الذين يقتلون من أجلهم.. أخفى دموعه في حضنها...

لم يلتفت لصوتهم أحد.. أغلقت الأسواق والحانات والبيوت وحتى بوابات الهيكل أغلقت أمام الغريب وأهل المدينة...

تمتم: آه يا ولدي.. كان عليهم أن يعيشوا وإن كان لابد من ذلك فعلى أحدهم أن يموت.. لا لم أخطئ، أجدادي فعلوها.. كنت تقدمة حسنة.. كنت تقدمة المدينة يا ولدي.. عليها أن تبقى وأنت.. أنت من اختار الرحيل.. أو لو استمعت وبقيت لكنت الآن بقربي يا ولدي.. تحذوا حذوي وتحيا.. كانت المدينة ستموت.. أم رائحتك.. تصلني إلى هنا.. أعلم أنها ستقبل فلقد طلبت ذلك... أغمض عينيه على وجهها..

obeikan.com

١٦

أغلقت العجوز أبوابها بإحكام.. منذ أن تركوها وشأنها وهى تحيا في سلام.. بعض الدراهم التي تأتيها بين الحين والآخر في رقية صغيرة لبعض النساء الفقراء حتى يكره أزواجهن الأخريات ويبقون عليهن.. كان الفقر يزداد والزرع يقل وما مِن مُعيل لهن، وحكاية المرأة التي طلقت من زوجها لأنها أخطأت وحرقت الطعام له فأعطاه الكاهن الحق في تطليقها تخيفهن.. كثرت الشحاذات على بوابات المدينة.. وكشفت الكثير منهن الوجوه على ذات الطرقات...

أضاءت ماريا قنديلها الضعيف، وأمسكت بمحبرتها ورقعتها، قرأت آخر سطر خطته، ثم اقتربت من الرقعة وأخذت تكتب.. تمتم: نظرك يضعف يا ماريا فالغد ستفقدين الضوء، عليكِ أن تنهي كلماتك من قبلها فهي من ستبقى.. وتبقي عليكِ.. زفرت وهي تكتب.. تكتب عن امرأة بعد أن سئمت كل كلمات الرجال.. تحنو على الأحرف لتزيدها قوة...

كانت تكتب عن امرأتين وحيدتين بعد رحيل زوجيهما تعودان إلى بلدتهما.. ليعيشا فيها من جديد ويحييان لهما ذكرى في الأرض ويعاودان الزواج والإنجاب من أبناء تلك المدينة.. بعد أن مات زوجاهما وأولادهما الغرباء.. ولكن في تلك المرة يحيون...

كتبت عن غريبة ولكنها أحبت البقاء.. عاشت ووجدت لها حياة في تلك المدينة.. كتبت أنها لم تمت وعاشت بسلام وأنجبت صبيا وزاد الزرع...

كان صوت الصراخ يأتيها منذ الصباح ولكنها اعتادت الصراخ من قبل ولم يعد هناك من وقت للتراجع.. أغلقت أبوابها حتى لا يأتيها لص أو قريب يريد طعامها القليل..

سئمت من تلك القبيلة وقصصها التي لا تنتهي.. جلبوا علينا الموت والخراب.. تركنا لهم تلك المدينة فحملوا إلينا خرابهم وأتوا به إلى داخل مساكننا...

كان عابد يزمجر وهو وأطفاله يقومون بقطف الكروم ووضعها في مسلات سريعًا.. كانوا يعلمون أن الحرس الرومي قادم إلى داخل الجليل...

والموت قادم في أعقابهم لا محالة.. كان يصرخ بأبنائه الإسراع.. كان عليهم العودة سريعًا إلى بيوتهم وإحكام إغلاقها.. لا يعلم أحد كم من الوقت سيمكثون وأي شيء سيتركون من خلفهم.. تأكد أن المسلات ستكفيهم إلى بعد حين.. أنزل أجولة القمح من العلية.. كان يعلم بالخطر القادم فزوجته من تلك القبيلة.. هم يقتلون ونحن نقتل وماشأننا بهم؟ نظرت إليه بخوف.. خوف من كتاب طلاق قد يأتيها بعد انتهاء كل هذا.. هذا إن بقوا أحياء.. تمنت في سرها الموت إن كان ثمن الحياة هو طلاقها وطردها إلى حيث بيت أبيها.. ولكن لايوجد لها مكان هناك فلقد أحبت وهربت

مع غريب من بطن آخر بعيد عنهم.. قالوا إنها تستوجب الموت.. قالت: لا.. الموت هنا مع أبنائي أكرم لي كثيرا.... لن تعود لترجم كالزواني.....

كانت تخشى ما تخشاه أن يعلم بأمر من خبأتهم قسرًا لديهم في العلية، لذا صعدت هي بنفسها وأنزلت بعض الأجولة وتركت الباقين ليختبئ فيها الهاربان.. ماذا ستقول له؟ هدداها.. قالا إن تلك المدينة ستكون لهم قريبًا، هكذا أخبرهم قائدهم.. أخبروها أن قصص الأجداد التي قصوها عليها وهي صغيرة ستعود وهي عليها الخيار إما أن تخبئها أو ستهلك مع الهالكين.. طلبت منهما العهد والأمان إذا حدث لهم ذلك.. ألا يمسوا زوجها وأولادها.. وعداها بذلك.. الأخبار تتلاحق وصوت القتال لا يزال من بعيد.. من استطاع الهرب من طرف المدينة قال الدماء تملأ الأرض.. قالت دماء من؟.. هوى قلبها.. وإذا نجت من هؤلاء الهاربين وجند الرومان إذا لاحقوهم إلى هنا فلن تسلم من يد زوجها وأولادها...

كانت تسمع صدى صوت والدها.. أغرت الغريب وفسقت تستوجب الموت.. كانت تعلم أن أخاها سيموت معها لأنه أيضًا هرب معها.. سيكون كالفاجر ويرجم.. تعلم أن أباها سوف يفعلها ويسلمها للرجم كما فعل من قبل ...

كان صوت الخراب قادمًا والقتلى يتزايدون.. كانت تعلم بهلاكها فجلست على باب بيتها.. كانت تشدو بالمراثي.. المراثي التي سمعتها من أخيها الذي كان يرددها حتى حفظها عن ظهر قلب واكتشفت أنها حفظتها معه برغم أنها لم تذهب معه إلى مُعلم ليعلمها الشريعة والأحكام مثله ولكنه ها هو ذا

يركض بجوار زوجها يجمع ما يمكن من سلال القمح والكروم.. بعد الموت يأتي الجوع على من يحيون.. كانت ترى النيران تلتهم الحقول.. تلك الحقول التي كدوا في زراعتها لشهور وكانت لأجداد زوجها كافحوا فيها.. ستدمر تربتها ويذهب بذرها أدراج الريح.. كم سيسهرون لأجل أن تعود بذورها تسقى هنا مرة أخرى...

ما كانت تسمعه من أخيها ينبئ بالخراب القادم.. الخراب الذي تعلم بقرب حلوله.. ولكنها أرادت أن تصدق الهاربين.. بأن يعود الهدوء ويطردوا الروم أيضًا.. من لا يتمنى خروج أغراب؟ هم حقا أغراب عليها.. لكنها تعلم أن زوجها لا....

آه يا لبؤسي.. لقد وضعت داخل الظلام وذهبت إليه بقدميّ..

من يمد لي يده ويعيدني إلى النهار

هشمتني مرارتي والمشقة، كأني ميتة أحيا

أغلقوا عليه الأبواب حتى لا يروني ولا تغلقوا أبوابه في وجهي

لا تحِط طرقي بالنحيب

وارفع عني الخراب وأبعده عن مسالكي....

كانت تندب جوار بابها بأنشودتها التي نطقتها بلكنة أهلها.. نطقتها حتى حسبوها تهذي بعد أن سمعت أصوات الموت قادمة تعبر إليهم الآن.. سحبوها إلى الداخل وأغلقوا الأبواب بإحكام...

على صوت الصراخ داخل المدينة دخل الحرس البيوت خلف الهاربين.. بين سطوحها وأجرانها.. لم يتركوا بيتا على حاله.. حرق الزرع.. لكنهم تركوا الكروم، في الصباح كانت تُجمع أخذوها عنوة.. وحملت باتجاه الميناء، كان عليها الذهاب حيث العاصمة هناك حيث عيد الخمر...

فى الصباح قيل للأمم في الجليل.. كل من سيبقي على هارب من وجههم سيلقى جزاء عابد وأهل بيته....

كره رجال الحنجر قائدهم فلقد تحول العبد الذي أصبح زعيمهم إلى طاغية خاطئ لا يقيم للحدود وزنًا.. هكذا قال الرجال مجتمعين خلف نيران مشاعلهم التي تدفأوا من حولها أعلى الجبال أمام كهوفهم.. كانت أخبار ما حدث في الجليل مع أهاليهم تكدرهم ولكن الزعيم لم يتفوّه بكلمة، قتلوا الآلاف منهم ولم يحرك ساكنًا...

جميعهم علموا أنه سعد بمرآى رأس أبشالوم في أيدي الروم وهي تطوف أرض المدينة وبجوار الهيكل.. لم يغضب مثلهم.. بل خرج وقال لهم لقد علمتم الآن من هو قائد ذلك الجبل فلو كان هو لكان السيد وقف معه.. لكنه دفع ثمن عبثه معه.. وانضمامه للكهنة المقدمين للإمبراطور.. وهم أيضًا سيدفعون ثمن خطئهم ولن يتجرأ أحد على رجال الحنجر بعد اليوم.

فى الصباح وقف في وسطهم، أمر بأن يحضر أمامه كل من تحدث بالأمس، جفلوا وصعدوا لينحنوا أمامه كما أمرهم فهو قائدهم وملكهم.. قال إنهم خائنون للسيد ذاته لأنهم تآمروا على من وضعه على رأسهم وكأنهم

رافضون لرغبته، كان يوحنان يقف خلفه يراقبه، كان يعلم أن الدور قادم عليه وأن وقت الحركة قد قدم ولكن ليس الآن، بعد أن كسر الروم من كسروا حل خوفهم وسط الناس، وإذا فكروا بالخروج لهم سيكونون فريسة لهم وسينتهي أمر رجال الجبل إلى الأبد..

كان يعلم أن حكاية عازر قاربت على الانتهاء، كان ينظر لملامح الرجال وهم يشاهدون العقاب ينزل برفقائهم.. كانوا يسمعون غضبهم ولحاهم تنتف ويسيل الدم على شفاههم.. والعصي الغليظة تهبط على ظهورهم ولا تتوقف إلا وهى حاملة معها دماءهم وأرواحهم..

أمر بإلقائهم أسفل السفح وأن يظلوا فريسة للطيور الجارحة.. تركهم بلا دفن..

كان الظلام يلف الجبل، ولا يحرك صوت السكون سوى أقدام عدد من الرجال، تحاول أن تجد طريقها إلى المدينة يتقدمهم يوحنان حاملا مشعله معه خوفًا من أن يوقظ الضوء فردًا من رجال عازر فيحدث قتال، كان يوحنان يعلم أنه حينها سيكون من الهالكين لا محالة فلا قِبَل له الآن بمواجهته بعد أن زاد خوفه في قلوب رجاله، ومن قبلوا الرحيل معه إلى أورشليم سوى الهاربين من وجهه قبل أن يلاقيهم الموت على يديه...

قبل أن تشرق الشمس كانوا قد هبطوا وسط السوق الذي بالكاد بدأ يتفتح، ولا تزال أصوات الطيور تحلق صباحا، وبهو الصيارفة يبدأ في الامتلاء، دلفوا حيث بهو الكهنة، حيث الكهنة يتحضرون لتقدمة الصباح...

امتلأ صحن الهيكل بالرجال، رفعت البخور واستعدت المحرقة لعملها.. سمع صوت أجنحة الحمام تحاول الهروب للمرة الأخيرة لها قبل الذبح، تقدمت العجول والثيران حيث بهو الأضاحي...

انفتح الباب وخرج منه يوحنان ومن خلفه رجاله، أسرع الكهنة من خلفه محاولين اللحاق به لكنه كان قد وقف في منتصف الساحة.. وتحلق رجاله من حوله لحمايته ونادى بأعلى صوته: "أيها الرجال الإخوة.. أنتم تعلمون من نحن.. نحن من يثور لأجل السيد ولأجل كلمة السيد.. نحن من يموت لأجلكم حتى تعيشوا أنتم أحرارًا..

من نحن؟ أقولها للمرة الأخيرة نحن منفذو المشيئة وحفظة الشريعة، من يمسها نخلص المدينة من نجاسته...

أما الآن أيها الإخوة فلتعلموا أن على كل صاحب مال وغنى أن يقدم لنا من قتدمته وأمواله.. هذا حقنا عليكم وسننتظر قدومه إلينا في كهوفنا هنا في أورشليم".

اتكأ على عصاه.. تنهد لطول الطريق.. منذ أن دخل من بوابة المدينة وهو يراها هائجة لا يدري لماذا.. ليست مثل آخر يوم شاهدها فيها.. زفر وعدل عصاته حتى تحمل قدميه اللتين كادتا أن تسقطا من فرط التعب.. تمكن يوساف من مواصلة الطريق حتى باب البيت الذي هرب منه منذ سنوات.. سقط عندما رآه مفتوحًا ولم يسمع له صوت الرحى.. كان مهجورًا.. كم استغرقت في الطريق ليحدث كل هذا؟ هل جننت يا

يوساف وسرت أكثر مما ينبغى؟ كنت هناك بالأمس ولكني أعلم أن هنا بخير.. كان يسمع صوت صراخ قادمًا من الطرف الآخر.. كان رجال يجذبون ماشية البيت ونساءها وهن يصرخن.. لمحهم من بعيد.. عرفهم.. ثمّ وجهه حتى عبروه ولم يبالوا بشحاذ فقير يجلس على قارعة الطريق.....

كان صوت الصراخ لا ينقطع عن المدينة، كل بيت مقتحم، كل بيت يدخر بعض المال يقدمه هناك حيث كهوف قائد الخناجر الجديد.. سقطت دموع يوساف.. تذكرها.. تيبي.. ماذا لو رحل معها؟ هناك حيث الإسكندرية.. ربما ما فقد ماله ولا عائلته.. ربما عاش حياة هادئة.. ربما طلب بركة أبيه قبل أن يموت غاضبا منه.. ربما تصالح مع إخوته.. ربما كان الآن قدم تقدمته داخل الهيكل وطلب الصفح من المجمع.. ربما كانوا سامحوه بعد أن يلقى جزاءه ويحيا هو وبنوه وبناته.. رآهم مرأى العين يموتون.. يحترقون مع من احترقوا.. مع كل شيء امتلكه ذهبوا....

كان هذا عقابًا له.. يعلم.. كان المخطئ وهم من دفعوا الثمن.. كان عليه أن يبقى ويتبع نصيحة والده ويخدم داخل الهيكل، لكنه لم يسمع واتبع طمعه.. نظر للبيت الخرب بحسرة.. هناك حيث جزريم هو من أعطى الحق لهؤلاء الرجال بأخذ أموال الأغنياء وكل ما يحتاجون.. لأنهم المدافعون عن شريعة هذا الشعب والتي يسرقها الروم من ناحية والأغراب من حولهم من ناحية أخرى.. هو من نظم لهم صفوف الفتية الراغبين في الانضمام لهم.. هو من أوصل صوتهم للحاكم.. وهو أيضًا من أخبر العامة بأن كهنتهم يسرقون الأموال ويضعونها تحت قدمي الحاكم.. زفر.. كان مسئولا عن قتل رئيس

الكهنة عندما وقف هناك وسط الناس يخطب فيهم بعظم خطأ ذلك الرئيس وخروجه السافر عن كل كلمة جاءت في الشرع الذي ورثوه عن آبائهم وينقلونه إلى أبنائهم....

كان يجلس جوار نافذة البيت ينتظر أن يسمع خبرًا عن أهله.. لكن بدلا من ذلك سمع بما يفعله يوحنان ورجاله في تلك اللحظة داخل الهيكل، يقولون إنه قتل رئيس الكهنة الذي عارضه وكل كاهن وقف معه وأرسل من هناك من حيث قدم ليحضر رجلا ليصير رئيس كهنته.. كان يسمع لطم النسوة القادم.. من استطاع من الأغنياء ترك ماله ورحل لأنه علم أن الخراب هو ما ينتظر تلك المدينة.. فلم يبقَ فيها سوى الفقراء..

ندبت النادبات لما يفعله الروم فعله قاطع الطريق.. كل من ردد غناءهن قُطِع لسانه وكان عبرة داخل المدينة....

بينما هناك داخل ذلك البيت الفقير في نهاية حارة اليهود كان بيت موصد جيدًا على أهله، وبينما الناس نيام كانت شعلة ضعيفة هي كل ما استطاعوا تأمينه حتى لا يلاحظهم أحد في ذلك الظلام الدامس.. كان حناني الكاهن جالسًا ومعه من الكهنة من استطاعوا الهرب من وجه يوحنان ورجاله..

قال لهم: لقد كثر الشر الذي يصنعه هؤلاء اللصوص فينا ولا قبل لنا بمحادثة حاكم حتى لا يحضر ويدخل مزيد من جنوده داخل مدينتنا.. فقال سمعان الأدومي: لا لن ننتظر.. علينا أن نخرج لهم نحن ونحاربهم، إذا بقينا صامتين سيجدوننا.. سنهلك بعيون جواسيسهم..

رد آخر: كل فتيان المدينة سوف ينضمون إلينا إذا خرجنا في الغد ضدهم، الكل يعلم عظم شرهم.. اطمئن يا سيدي.

رد حناني: لم أرد قتالا أن يصير في المدينة، ألم يكن يكفي من قتِلوا من قبل؟ ولكن الآن ليس أمامنا خيار علينا قتالهم حتى الرجل الأخير منا.. إذا انتصروا علينا فقد انتصروا على المدينة وكل شيء لنا هنا...

كان الوقت فجرًا عندما أمرهم بإغلاق أبواب المدينة في وجه الأدوميين القادمين، وقف على حصن أنطوليا يراقب الأعداد القادمة.. صرخ حناني: لم جئتم الآن؟ قالوا: جئنا لأجل الهيكل، هل لا يحق لنا التقدمة فيه الآن ونحن على شريعته منذ وقت المكابي؟ رد حناني: لقد جئتم لأجل لص وأنا لأجل صاحب هذه الشريعة، لم أرض لرجالي أن يدخلوا من خلفه داخل الهيكل الذي اختبأ فيه حتى لا يراق دم هناك.. والآن لمَ جئتم؟ ألأجل هذا اللص؟ أبواب تلك المدينة لن تفتح لكم.. سنقاتل حتى لو اضطررنا إلى الروم.. أسرع أحد الكهنة واقترب من أذنه: لقد وصل متياس إلى هناك حيث قصر الحاكم برسالتك.. تمتم حناني: حسنا هذا أفضل، لن نقدر على الاشتباك معهم الآن ولو علموا بإغلاقنا لأبواب المدينة لعدّونا خرجنا عليهم وعلى حكمهم لنا الأن وأرسلوا لنا فيالقهم...

اقترب منه سمعان الأدومي وقال: سوف يتركون السلاح.. ففتح لهم أبواب المدينة.. هبط سمعان سلالم الحصن الداخلية ليخرج سريعا، نظر إلى

السماء لم يتوقع أن يحدث مطر وبرق الآن.. لكنه ابتسم.. نظر حناني إلى السماء وقال: هيا يارجال عودوا إلى بيوتكم لأن السماء قررت أن تتصرف عنكم.. وسوف تفرقهم ولن ينجو أحد منهم من السيل.. أسرع رجال حناني في الطرقات التي امتلأت أرضها بالمياه وأغلقت الأبواب على أصحابها جيدًا.. بينما وقف حناني من خلف باب بيته ينصت إلى السماء.. كان ينظر للأعلى ويقول: ماذا؟.. ماذا؟ فيمَ أخطأنا؟....

obeikan.com

١٧

ركض سمعان إلى البوابات، كان يلمح رجال يوحنان من خلفه يهرعون نحو الأبواب ويفتحونها.. احتضن سمعان أخاه حارثه وهو يفسح للرجال الطريق إلى الدخول.. فركضوا بين الطرقات يطرقون الأبواب ويقتحمونها.. تطلع حناني إلى السماء.. فيم أخطأنا؟ ركض سمعان كان يعلم في اى بيتا يختبئ حناني.. طرق الباب وأسمعه صوته فتح حناني.. كان صوت هدير المطر يمنع أصوات بكاء الأطفال والنساء من الارتفاع.. تمنع صوت آلام الفقراء وهم يقتلون والرجال وهم يحاولون الفرار بحياتهم...

نظر له حناني.. قال: لمَ؟ أنت يا سمعان كنت تلميذي.. كنت منّا أليس كذلك؟

ضحك سمعان: منكم كيف؟ كيف أكون منكم؟ هل نسيت قتلكم لنا في السابق؟ وإن نسيت أنت كيف أنسى- أنا أهلى الذين قتلتموهم؟ ألم نكن غرباء؟ لمَ تريد الآن صداقتي؟ لم؟ هل لأنك الآن خائف وقد أغلقت السماء أبوابها في وجهك؟ أخبرني إذا كانت مفتوحة ألم تكن تقتلنا؟ نحن غرباء القوم.. ولتطردونا وحتى لتمنعوا دخولنا إلى هنا.. إن كنت نسيت فلن أنسى أبدًا ما حييت ثأر والدي وإخوتي، لقد انتقمتم منهم بلا ذنب وأنت الآن سوف تموت أيضًا مثلهم.. بلا ذنب...

أمرهم كوثوبانوس أن يقتلوه فقتلوا رسول يوحنان على بوابة قصر الحاكم.. كان يعلم أن الحاكم لن يتدخل لأجل أحد الآن، يكفيهم ما صنعوه في السابق.. كان يعلم أن الحاكم محِقٌ فهؤلاء جلبوا الفوضى في المدينة لسنوات وقد حان الوقت لينتهي هذا كله.. لكن قلبه لم يعني هذا.. ترى أين أنت الآن يا ماريا؟ هل لا تزالين هناك تعالجين المرضى وتشفين قلوب النساء الموجعات؟ كانت تقول إنها علمت طريقها أمام الناس وسيدها ولن تتراجع عنه.. لقد التصقت بتلك المدينة ولم يعد بالإمكان إخراجها منها.. قالت له آخر مرة حتى لو ماتت ستبقى روحها أسيرة تلك المدينة أبد الدهر، لا خلاص منها ولا رائحة كرومها، لا تزال تحلم بالكروم الصافية التي كانت تأكلها في صباها، لا تزال تشتهي الصبا وتبحث عنه في وصفاتها.. تريد أن تعيش.. أن تحيا فوق عقارب الزمن، تريد أن تظل لترى الكروم تسطع من جديد...

كانت تعلم أنها تحلم ولكنها قالت له سأبقى هنا بمقدر حبي لك سأبقى.. كان يبتسم ويصمت لا يدري بماذا يجيب؟ هو أيضًا من هناك نصف عمره كان برومية والآخر بالإسكندرية، كانت كشقيقتها الصغرى فلم يشعر هناك بالفرق.. كان مثلها يحلم بالعودة لها لكنه يعلم أن حياته ليست بيده بل هي بيد الحاكم.. يحكم فيها كيفما أراد..

كانت أخبار الموتى تصل لقلب القصر كل يوم.. لم تُبقِ الخناجر على أحد.. دخلوا البيوت وأخذوا منها ما شاءوا ولم يردعهم أحد، فقد سكن خوفهم قلب الجميع، أخبار القتلى تتزايد وكوثوبانوس ينتظر كلمة من فم الحاكم

لينطلق مع فليقه ويدخل المدينة.. ربما رآها ولو لمرة أخيرة وبعدها يرحل حيث مدينته.. لكن انتظاره طال ولم يسمع الخبر...

مدت ماريا عنقها لذلك الخنجر.. أغمضت عينها وابتسمت في ارتياح عندما تيقنت أن الأطفال الذين خبأتهم في بيتها استطاعوا الهرب من وجه الموت.. أغمضت عينيها لأنها لم تعد تستطع أن تحيا وهي تشم رائحة الدماء تطغى على كل شيء داخل حقول الكروم وداخل البساتين.. بين الدكاكين وفي الأسواق وفي البيوت.. حتى وصلت قلب الهيكل فلم يعد هناك مُحرّم ولا رأس مصون.. وضعت رأسها أمام ذلك الشاب الذي يدعو نفسه ثائرًا مطيعًا ليوحنان.. مدتها وابتسمت.. رفع خنجره وهوى بضربة واحدة على رأسها... فسقطت بعيدًا...تنفس أنه لم يستطع النظر إلى وجهها وهي تحدق في الموت ولم يخطئ هدفه.. أراد ان يفعلها لمرة واحدة حتى لا يطيل الألم بها.. كان مجبرًا.. لا يستطيع أن يخالف الأمر، فلو فعل حياته ستكون سهلة لهم مثل الآخرين ولن يبقوا عليه، يعلم أن مهارته في القنص هي ما تحميه إلى الآن.. ولكن تلك المرأة يعرفها.. يعرفها منذ أن كانت تجول في السوق وتجلس على الطرقات.. بملابسها الرثة.. يهرب من وجهها الغلمان.. تذكر جوعه بعد أن عاد الجفاف وخرج للبحث عن عمل.. فلديه أم وإخوة.. تذكر بكاءه جوارها وكسرة الخبز التي تقاسمتها معه.. كانت تبتسم وهو يخرجها من بيتها لمكان موتها.. كانت تبتسم لأنها تموت على يده

هو وليس آخر من رجال يوحنان.. على الأقل سيرد لها الصنيع ويصنع بها قليلا من الرحمة ولا يدع عينيها تريان الخراب وهو يحل...

سقط جوار عمود يبكي.. ورأسها يركض بعيدًا عن جسدها في المياه اللزجة التي تلطخت بالطين على الأرض..

شعر بالراحة عندما أمِر مع بعض رجال يوحنان بالذهاب إلى المدن الأخرى بجوارهم واقتحامها.. كان يريد الرحيل والابتعاد عن تلك المدينة.. خرج في مقدمتهم.. كان الطريق طويلاً لكنه تقدم ولم يتراجع تلك المرة.. دخلها ولم يعد يبالي، كان عليهم العودة بما استطاعوا من غنائم وأبقوا بعض الرجال منهم في تلك المدن بعد أن فتحوها...

علموا أن قائدًا مرسلاً من قِبَل الحكام سوف يأتي إليهم في الطريق.. علم أن عليهم الهرب والرجوع إلى المدينة.. شعر بالغضب لأنه سيضطر للعودة لها من جديد.. خرجوا في الليل عندما علموا أنهم قادمون في طريقهم.. كان قائدهم فأمرهم بالقتال.. كان عليهم القتال ولكنه يعلم أن لا حياة لهم أمام الجند القادمين للانتقام لمن قتلوا منهم في البلاد.. سمع صوت الجياد قادمة، أخرج الرجال السيوف.. كان يسمع صوت القتال.. صوت صراخ الرجال وهو يركض نحو الأرض.. ألقى بنفسه داخل نهر الأردن.. كان يعلم أنه سيموت قريبًا وكان عليه أن يتطهر.. نزل بجسده وغاص في المياه.. كتم أنفاسه حتى رحل صوت الجياد بعيدًا وأخرج رأسه يتنسم الهواء من جديد....

سمعت طرق بابها ليلا.. تراجعت للخلف فزعة.. منذ أيام هجرت فراشها وجلست جوار الباب تنتظر، تعلم أنه سيرسل لها.. تتمنى ألا يحدث هذا لها.. نظر لها عبيدها بخوف.. لا تريد الخروج إليه.. لم تختره مثلما لم تختر أن تكون سارة.. ولدت وسط بيت كبير ووالد يعمل بالتجارة.. كان أهل المدينة ينبذونه لأنه يتاجر في قيصرية، هرب شقيقها الأكبر وحطم قلب والدها الذي لم ينسَ أن ولده خان عهده معه ورحل إلى هناك حيث الجليل.. رحل وظهر هو، كان أحد عبيد والدها من المدينة.. قال لها: سأرعى مالك وتكونين لي زوجة، هذا أفضل لك من أن يزوجوك هم ويقتسمون مالك ولن تأخذي شيئا، أنت وحيدة.. لا أحد يعلم ابن من شمعون.. كان يكره نعته وتذكيره بأنه مجهول الأب.. لا يعلم أحد كيف كان يعيش في السابق قبل أن يسلّم نفسه لوالدها ويطلب أن يكون عبدًا لديه.. ولا تدري كيف وافقه والدها.. ولكنها في النهاية تزوجته، لا تستطيع أن تقول لا ولم يبالِ أحد إن تزوجت عبدها، فالرجل رجل حتى ولو كان عبدًا....

كانت تسمع صوت النسوة: تزوجت عبدًا من الجليل.. فترد أخرى: أفضل من أن تتزوج غريبًا من قيصرية، والدها كان يتاجر معهم.. ردت أخرى: زوجي يقول إنه خائن خان أهله وتاجر مع أغراب، أمواله نجسة.. فليهنأ بها العبد....

كان شمعون يبتسم لها كلما اقتربت إليه.. قال لها: لا تخافي.. منذ اليوم أبسط ردائي عليكِ ولن أدع أحدًا يؤذيك....

كانت تسمع صوت صياح غضب الناس منه.. سرق المكيال وغش الناس حتى ضجروا، حتى أتى يوم صباحًا بصراخ أحد عبيدها بأن سيده قَتَل.. صرخت سارة: قتل من؟ علمت أنه غضب فقتل التاجر الذي شكاه للمجمع.. كان صوت الغاضبين منه يأتيها.. لم يعد للبيت بعد أن قتل بل هرب خارج المدينة.. علمت حينها أنه لن يعود.. لكنها علمت أن لصوص المدينة خرجوا واجتمعوا به، حتى رجال يوحنان الهاربون من وجهه ذهبوا إليه.. كانت تأتيها أخبار غاراته على المدن بجوارهم.. وصل اسمه إلى البلاد المجاورة وخافه أهل المدينة.. علمت أنهم لن يخرجوا له لأنهم يقاتلون يوحنان.. خافت كل يومٍ أكثر من الآخر من أن يتذكرها.. طرق الباب، علمت أنه أتى ليأخذها.. قالت لا، لن أرحل معه، سأبقى في مدينتي أحيا، لن أخرج لأموت معه في أرض غريبة.. علمت أن له زوجة أدومية.. لا لن تقبل أن تكون ضُرة لأخرى وأدومية أيضًا .....

تكرر الأمر وطلبها.. كان خبر أفعاله في المدن المحيطة يصل لقلب المدينة فيثير بها الذعر والخوف.. لم يكن أهل أورشليم يستطيعون أن يناموا هادئين، لقد كان لديهم يوحنان يقتل من يريد إذا خالفه وتملّك بعد أن سقط الكهنة والخارجون عليه فلم يستطع أحد بعدها أن يقف أمامه فيأتي لهم شمعون الذي لا يعلم أحد من أين أتى.. ليهدد باقتحام المدينة.. سر خبر إحاطة رجال يوحنان لبيت زوجة شمعون سارة من جميع الجهات، لقد منع خروجها لملاقاة زوجها.. كان يمهد أن يأخذها لنفسه إمعانًا في إذلال شمعون الذي تجرأ عليه وأرسل له خطاب تهديد....

كانت تعلم أنها صارت محجوزة داخل بيت لم يعد بيتها تنتظر هلاكها، ندبت حظها وارتدت المسوح وارتدته جارياتها معها وبكين على حال سيدتهن التي تلبس مسوحًا على موت نفسها.. فالأمس بيد شمعون واليوم بيد يوحنان....

كانت تلقي بالتراب على رأسها في غضب قائلة: لقد جلبت العار على رأس أبي وإخوتي إلى الممات.. وأصبحت أضحوكة بين القبائل.. وصل لمسامع الناس الخبر. شمعون قادم ليقطع أيدي وأرجل أهل المدينة ليستلم زوجته.. كانت تعلم أنها أصبحت مكروهة للكل.. لم يفدها ارتداء المسوح، كانت تعلم أن عليها الخروج إليه...

لن تنتظر حتى يأتي ومعه رجاله ويقاتلون رجال يوحنان.. سيهلك حينها الشعب كله، سينهدم الهيكل من تحت رأسها.. ستجلب هي الخراب ونهاية شعبها.. في الصباح ارتدت أفضل ثيابها وتعطرت، وتعطرت جواريها وارتدين الحلي مثل سيدتهن.. علمت أنها ستخرج من ديارها أمة.. أمة قبلت بذلك حتى لا يموت الناس، تقدمت خطواتها ببطء ومن خلفها كانت قافلتها من العبيد والجواري.. مرت على أطراف المدينة قبل أن تغادرها، همست لنفسها: ترى هل سيتذكرني أحد؟

هل ستذكرينني أنت يا أورشليم؟ هل ستذكرين يومًا أن امرأة خرجت لأجلك أنت؟ لأجل أن تبقي ولا تموتي.. أن امرأة مثلك أنت تستحق أن يقتل الناس لتعيش هي.. هكذا أوجدونا ولهذا نحن نحيا.. هل ستذكرين ابنتك؟ أم ستقولين عنها الآن أنها أمك؟ لا أبالي من أي بطن خرجت

منك.. لا أهتم الآن من يحمل دمي.. لقد قبلت أن أصير أمة لأجلك.. فهل ستذكرينني؟ هل ستغفرين لي ولأبي؟ هل سترحمينن أهلى ممن سيتبقون فيك؟ هل سترحمين غريبا يوم أن يأتيك عابرًا؟ ربما كان ولدي أنا.. هل ستعيشين حقا؟

سمعت أصوات تذمر الناس.. أرادوا رحيلها عنهم سريعًا قبل أن ينفذ زوجها ما قاله ويحدث القتال ويقتل الأهالي بعضهم البعض بين يدي رجال شمعون ويوحنان...

زجرت سارة قبل أن تلمح آخر بوابات المدينة وهو ينغلق خلفها...

آه منك يا مدينة بائسة لم تُبقِ على من أحبك مثلما فعلت مع من كرهت، ما كل تلك الدماء التي تسيل فيك إلا لتفهمي كيف تتوقفين قليلا عن الموت ولتحيي ولنحيا فيك مثلما أردنا.. لمحت سيدة تزجرها خلف آخر البوابات: هيا هيا.. ارحلي أيتها الغريبة وارثة دم أبيك الفاسد الذي خالط الغرباء حتى كاد أن يجلب الخراب علينا.. ولتدفعي ثمن إثم أبيك.. لو كان هناك قضاة لنفذوا فيك الحكم المستوجب أيتها الزانية.....

تحت ستار الليل دخل إلى المدينة المحاصرة من مداخلها برجال يوحنان ومن خارجها برجال شمعون، لكنه بفضل بعض الكهنة المتبقين استطاع الدخول خلسة، ومضوا به إلى أحد الكهوف فلم يبقَ بيت آمن داخل المدينة بأسرها، حتى اضطر الأهالي لإخفاء نسائهم وأطفالهم داخل كهوف الجبال بعيدًا عن أنظار رجال يوحنان داخل المدينة...

تنفس أهل الكهف الصعداء عندما دخل الضيف الذي ينتظرونه.. تعانق الكاهن الهارب مع إلعازر بن حناني.. بلل لحيته بالدموع وهو يتذكر أن والده قتل أمامهم غدرًا على يد غريب.. زجر إلعازر: فلم قبلتم الآن مهادنة هؤلاء الغرباء؟ قال: سامحنا يا ولدي فلو لم نفعل لما تبقى أحد من رجال المدينة أمام رجال يوحنان، لقد دخلوا معنا المدينة وحاربوا معنا لأجل أنفسهم.. شر شمعون ويوحنان طالهم في بيوتهم وأموالهم ونسائهم يا بني.. لم يعد أحد هنا بمأمن.. همس: والحكام تركونا لنموت.. جز إلعازر بن حناني على أسنانه: الحكام الذين طردناهم تريدنا أن ندعوهم نحن لمرة ثانية بدخول المدينة والبقاء فيها ونحزن ونغضب لأنهم لا ينفذون شريعتنا نحن بل شريعتهم هم، أليس كذلك؟ ربت الكاهن على كتفه: اهدأ يا بني.. ليس أمامنا سوى أن نتعاون مع جيراننا في المدن المجاورة اليوم.. أما الغد فاتركه لحينه....

١٨

دخل إلعازر ومعه الكهنة إلى داخل صحن الهيكل، ووقف إلعازر في وسطهم وبصوته الجهوري نادى غلمان المدينة أن يتقدموا وينضموا إلى صفوفه في قتال أعداء المدينة من اللصوص، ويعدهم بأن من معه لن يهلك لأنه الحق والحق يعضده السيد.. فتقدم العديد من الفتية ممن ملّوا الخوف من يوحنان في داخل المدينة ورجال شمعون بخارجها.. لم يكن هناك حل وإذا كان الموت فليكن دفاعًا عن المدينة...

كان الوقت مساءً، خرج متاي مسرعًا ومن خلفه زوجته وأبناؤه.. راقبوا منزلهم وهو يحترق على أثر النيران التي تلقى ما بين رجال إلعازر وشمعون.. وقف كثر بجوارهم ينظرون النيران التي أمسكت في بيوتها الواحد تلو الآخر.. وأحدهم يسرع إلى الداخل لينقذ ماشيته بينما تصرخ فيه زوجته أن يخرج سريعًا قبل أن يحترق.. كان صوت بكاء الأطفال يرتفع.. نظر متاي لزوجته التي تبكي على البيت والطعام والماشية، ضاع كل شيء، لم يستطع أن يقول لها شيئًا.. ماذا سيحل بهم الآن؟ لا يعلم، سينتظرهم الموت في العراء أم ستسبى زوجته وفتياته ليوحنان ويقتل أولاده وهو معهم.. لم يكن هناك سوى حل واحد.. تقدم الفتيان وتبعوه نحو الجبال، كانت زوجته تصرخ.. أرجوك عد يا سيدي.. عد لا تفعل أرجوك....

تقدم وسار من خلفه عدد منهم لم يكن أمامهم سوى الجبال ليسلموا أنفسهم للرجال، إلعازر أفضل لهم من الذهاب ليوحنان، أن يكونوا عبيدًا لدى الكهنة أفضل لهم من أن يكونوا عبيدًا للصوص...

كان على متاي أن يتعلم حمل السلاح هو وفتيانه، من قبل كانوا فلاحين يزرعون الكروم ولم يفكر أحد منهم أن يقاتل.. كانوا يخشون على أرضهم من أن يصيبها الجفاف.. خرجوا لبيع كرومهم إلى الأدوميين وإلى المدن الأخرى المجاورة.. لم يكن يعنيه غرباء أم لا، قال: كلنا نسكن تلك الأرض، لِمَ لا نبيع ونشتري.. عاب عليه جيرانه لكنه لم يكن يبالى.. علّم أولاده فلاحة الأرض وأن يتجنبوا فعل الشر لأنه حينها فقط سيطردهم..

نسي أمر ولده الأكبر الذي طرده من البيت لأنه قال كلاما مع يوحنان.. امتلأ قلبه بالخوف.. ماذا لو قابل ولده.. هو حقا قام بطرده.. لكنه لن يقتل، لن يستطيع، يعلم أن ولده أخطأ وخرج عليه.. لكنه لا لن يفعلها، هكذا قال لنفسه لتهدئتها وهو يرى فتيانه يتقدمون في دروس القتال على يدي كهنة إلعازر...

مضى الوقت عليه سريعًا.. صاح بهم إلعازر أن الليلة سيتخلصون من يوحنان إن هم ثبتوا في العزم ولم يتراجع أحد منهم.. شعر بالراحة، إذا هم قتلوه الليلة ستعود المدينة، سيتمكن حينها من العودة لأرضه ويعيد بناء البيت من جديد...

كان ممن سيبقون في الخلف ويطلقون النيران الملتهبة من الأعلى على الجانب الآخر، كان ولده الآخر سيقدم الصفوف الأمامية.. كان يطلق

النيران في شغف، نعم لأنها ستقربه من بيته وأرضه.. كان صوت الصراخ يأتي مرتفعًا من الجانب الآخر.. صاح رجال إلعازر في نصر.. كانت النيران لا تزال مشتعلة في البيوت والحقول على مرمى البصر...

جال ببصره يبحث عن ولده.. لم يكن من العائدين.. ركض، لم يستمع إلى صوت التحذيرات.. هبط إلى المدينة.. يجول ببصره وسط الجثث المتناثرة على الأرض والتي تركت لتتعفن من دون دفن.. ركض حتى وصل للهيكل.. كان يبكي.. دخله.. كان يتخطى الجثث التي وصلت حتى داخل الهيكل.. لمح هناك دماء متناثرة على العمود.. جرّر قدمه تجاهها.. رآهما متعانقين.. لأول مرة يتعانقان.. لم يكف بيته يومًا عن معايرة النساء وأبناء زوجته من المدينة لأبناء زوجته من هناك من الأمم.. لم يعانق الصبية أخاهم من قبل، قالوا إن دماءه مختلطة بدماء أقل منهم من أهل الأمم لذا لن يقربوه.. شعروا بالراحة عندما طرده والده لأنه أراد أن يشترك في الحرب.. قالوا له: انظر.. دماؤه نضحت عليه.. نهرهم بنظراته.. تمتم: كل الدماء واحدة.. كلها واحدة....

تعانقا الآن أمام الموت، وفي بهو الكهنة.. فوق جثث آخرين هلكت هنا من قبل.. انزلق على الأرض.. بسبب الدماء.. لم يلحظ ذلك الرجل المختبئ خلف أحد الأعمدة الأخرى فأجهز عليه..

رفع رأسه يستطلع الضوء القادم من بعيد، نظرت له ثيودورا بخوف، تعلم أنها خرجت من المدينة وأنه هنا بالجليل موجود مثلها، وأنه لا فارق بين

أحد، لكنها انتفضت بجوار يوساف عندما استيقظ على الضوء القادم.. تذكرت الخوف التي شعرت به وهي تهرب مع تلك القافلة التي جازفت ذات مساء للخروج من المدينة والهرب من وجه رجال يوحنان والخوف من السقوط في أيدي شمعون.. كانت ترتعش، لم تشعر بذلك الخوف من قبل.. تمنت لو كانت لدى سيدتها مجرد عبدة، على الأقل هناك كانت ستنعم ببعض الأمان...

فى ذلك الوقت خرج رجال يوحنان ليقاتلوا رجال شمعون فلم يبالِ بأمر القافلة التي تمر.. كانت نيران مشاعلهم التي تسقط من جانبها تزيدها رعبا.. كانت تصرخ عندما سقطت على امرأة بجوارها.. فاشتعلت.. ركضت.. ركضت حتى ابتعدت.. سقطت على الأرض لترتاح.. تذكرت شاي.. لقد أخبرها بطريق الهرب وضمن لها مكانًا بتلك القافلة.. لكنها لم تنسَ أبدًا أنه في أول الأمر رحل.. رحل هو وأبناؤه وزوجاته وعبيده.. رحل من دونها.. وأرسل لها من هناك...

أقسمت في ليلتها ووسط الخوف والظلام من أن تسقط في يد قاطع طريق أو تموت على الطريق أن لا تعود لترى أو تهتم بذلك الشاي مرة أخرى.. وفعلت عندما دخلت الجليل في المرة الأولى.. لم تبحث عنه مثلما أقسمت.. انبهرت هناك بالأمم.. تعرفت على غرباء مثلها.. هناك لم يكن غرباء، كانوا جميعًا سكانًا لتلك الأرض..

لكنه وجدها.. هناك كان لهما كوخهما بلا خوف.. لكنه كان خائفًا.. قالت له: من يهتم الآن.. المدينة تموت بين يدي يوحنان وشمعون.. كان شاردًا، قال

لها بخفوت: نعم أراها تموت.. أراها تموت كل ليلة، أراها تحترق وتتبخر.. تعود ترابًا.. والجميع يهرب.. يرحل.. يموت.. ولكن أنا ولدت هنا ثيودورا.. من هنا أنا.. لا أعلم أين كان أجدادي.. ولكن أنا من هنا.. صمتت لا تدرى ماذا تقول، فهي لم تتمكن من رؤية مدينتها ورحلت ملامحها من ذاكرتها..

وقفت من بعيد تراقبه وهو يفتح باب الكوخ.. حاولت تحذيره: ماذا لو؟ قال لها: لا هنا لن يهاجمونا.. فتح.. كان هناك ملثّم.. طويل.. خافت.. هي تعلم الملثمين، كادت أن تصرخ.. لكن شماي أوقفها عن ذلك.. تراجع ليدخل الغريب...

نزع اللثام عن وجهه، قال: أنا صادق، قد أرسلني لك يوسيفيوس برسالة.. تراجع شماي، ردد: صادق؟ قال: نعم، صادق الأدومي، تريد أن تتسلم رسالتك؟

قال بتردد: نعم.

رد: يوسيفيوس يطلبك لديه في الجبل.. إنه هنا في الجليل.. لقد أصبح قائدنا هنا ضد الروم وأرسلني في طلبك.. هيا، إنه متحصن في يوذات الآن...

تطلع لذلك الكاهن الشاب الذي لم يحبه من قبل.. تقدم إليه يوسيفيوس فاردًا ذراعيه.. تقدم إليه شماي بقلق.. قال له: اجلس يا سيدى.. كما ترى، لقد هربت برجالي إلى ذلك الحصن.. تطلع شماي من حوله بينما مال

يوسيفيوس عليه: اسمع يا سيدى، أعلم أنك كنت ضد القتال ولم تحبه.. وقد علمت أننا الآن نحارب الروم ولكنك تعلم أن عددهم في ازدياد....

رد: قلت لكم نحن لسنا أهلا للقتال اليوم، المدينة منقسمة ما بين لصوص يوحنان وشماي وبين إلعازر... صديقك، ولدينا لص الجبال عازر أيضًا.. أين هو؟ صديقك هو أيضًا أنا أعلم...

قاطعه يوسيفيوس: اسمعني يا سيدي، نحن هنا لسنا بمفردنا، حتى الأدوميين يقاتلون معنا بالآلاف من شبابهم.. أتعلم لماذا؟ لأن الروم سيقضون علينا ولسنا أهلاً لذلك الشجار الآن.. لم يكن أمامنا سوى أن نقاتل معًا حتى تنتهي منهم، وكدنا أن نفعل لكنهم يحاصروننا من الخارج.

رد شماي: أعلم، والآن ماذا تريد مني أن أفعل؟ أن أخرج وسط الجنود الهالكين وأقول لهم أن يصمدوا أليس كذلك؟

رد يوسيفيوس: لا

اندهش شماي: ماذا؟

لا أريدك أن تخرج لهم للقتال.. بل أريدك أن تذهب في رسالة أخرى إلى هناك حيث أورشليم.. ولا تخف.. سأجد لك طريقًا للخروج..

رد شماي: كيف؟ ولماذا؟

أريدك أن تقول لهم إننا لم نعد أهلا للقتال وعلينا أن نتوقف، لقد أرسلوا لي طلب صلح.. وكما ترى الجنود يقتلون ويموتون عطشا كل يوم.. أريدك

أن تخبرهم أن يوافقوا على الصلح، وحينها سيرسل إلينا القائد الروماني، ولنرَ ماذا سنفعل....

تريدني أن أذهب لهم للتسليم أليس كذلك؟

عقد يوسيفيوس حاجبيه: عجبًا.. ألم تكن أنت ضد قتالهم..

نعم عندما كنا نخطئ.. لأني أعلم أن سيدي حينها سيتركنا.. ولكننا الآن توحدنا.. وأنت من تدخل بيننا الآن هؤلاء القوم من القبائل الأخرى.

سيدي ألا تفهم؟ نحن الآن سنموت، أنا لا أهتم بأن أحيا ولكني أريد مصلحة شعبي.. ومصلحته في أن يحيا....

خرج شماي من لدى الجبال، كان يهمس إلى نفسه: أي مصلحة في حياة نجسة كتلك.. كيف أسلم نفسي لغريب؟ لم أرضَ بأن أقترب منه من قبل.. كيف أنسى من أنا ومن هم عائلتي وقبيلتي؟

اقتربت ثيودورا: ستعود إلى هناك؟ رد وهو يتجهز: نعم. قالت: لماذا؟ لماذا لا تنظر لي؟

أعلم أنك تريد قتال أهلي.. ولكن لماذا؟ لماذا لا نستيطع أن نحيا جميعًا معًا؟ لماذا لاعلينا أن نقاتل؟

رد شماي بغضب: لأنه حق لنا.. لأن علينا أن نعيش هنا.. وعلى الغرباء أن يخرجوا.. لقد تنجسنا بفضلكم.

قالت: لا.. نحن نحب بعضنا.. وهل حبنا نجاسة لديك؟

تراجع ونظر إليها: نعم.. نجاسة ثيودورا.. نجاسة كان عليها أن تنتهي.. كان عليّ أن أقتلك حتى أمحو نجاستي، ولكني لم أستطع أن أفعلها من قبل.. لقد قبلت التضحية بوالدي حتى نحيا جميعًا.. بسببك.. بسببك أنت أصبحت عارًا على عائلتي وعلى قبيلة أجدادي...

صرخت: لا ترحل شماي.. دعنا نعيش.

ركض ناحية الباب: ملعونة.

لا ترحل.. اتركنا نحيا هنا بسلام، لا تجلب الموت على الجميع.. اجعلنا فقط نعيش...

ركض الرجال في الظلام.. كانوا يتجهون ناحية المغارة خارج المدينة.. أشار يوسيفيوس لأحد رجاله بأن يتأكد من خلو المغارة وأمانها.. ثم أعطى إشارته إلى بقية الرجال فدلفوا إليها مسرعين.. جلس وحوله رجاله الأربعون.. لم يتبقَ غيرهم في المدينة بعد أن قدم الروم.. تمتم يوسيفيوس: كل هذا خطأ هذا الكاهن شماي، لولا عناده لما مات أهل المدينة، لم يبقَ أحد من أهلنا هناك، لم يُبقِ الروم سوى على القليل من الغرباء الذين استسلموا لهم....

رد أحد رجاله: ماذا تقول؟ كان علينا أن نقاتل حتى النهاية.. ما النصر في حياة كتلك نحيا فيها وسط غرباء يحيون وسطنا.. ويقدمون في هيكلنا..

قال يوسيفيوس: ليس علينا الموت جميعًا بل أن نحيا.. إذا متنا الآن ألن نترك كل هذا لهم؟ ولا تنسَ أن بقية المدن تلك التي تقول عنها غريبة.. أرسلت رجالها ليقاتلوا الروم مثلنا حتى يخرجوهم من مدنهم أيضًا.. جميعنا قاتلنا ولكن ها نحن ذا لن نستطيع أن نحيا...

قاطعوه: أجدادنا وآباؤنا الذين أخبرونا قصصهم قالوا لنا إنهم فضلوا الموت.. الموت على حياة الذل.. أورثونا إياها ولا نريد أن نعرف غيرها.. الموت أكرم لنا من العيش وسط غرباء، أتفهم؟ علينا أن نعود لنقاتل.. نقاتل حتى آخر رجل هنا، ولنمُت في القتال مثل الذين سبقونا.

نهضوا والتفوا من حوله: والآن إما أن تستمع إلينا وتعود لتموت موتا كريمًا يقصه من سيتبقى منا فيما بعد أو تموت الآن هنا كذليل على يد أهلك وتشيّع بالعار....

تطلع لهم يوسيفيوس: ولكن ماذا أليست حياتنا بيد سيدنا؟ وهو فقط من يملك هذا الحق في قتلنا أو حياتنا؟ لا تريدون أن نموت هكذا بل مثل الصالحين ممن سبقونا.....

سقط على وجهه، رفع يديه إلى السماء يصرخ: يا سيدي لقد وضعنا في هذا البلاء لأننا لم نستمع إليك ولم نعمل بشريعتك وتركنا أنفسنا للنجاسة والغواية حتى انفلتنا وضعنا عن طريقك.. فالآن نرجوك أن ترحمنا فأنت من بيدك أمر أجسادنا إن كانت تحيا أو تموت، وليست بيدنا نحن فنرجوك لا تسلمنا لمشورة أنفسنا....

التفت من حوله، نظر لعيون رجاله لكنهم كانوا ثابتين مشهرين سيوفهم من حوله ولم يأبهوا لكلماته ولم يتراجع أحد بل تقدموا ناحية قتله.. رفع يده وصرخ فيهم: اسمعوني يا إخوتي.. حسنًا إن كان لابد من الموت فليكن.. اسمعوا لي فليكن اثنين اثنين.. حتى لا يتبقى منا أحد...

جلس أمامهم يراقبهم يسقطون بيد بعضهم البعض.. تبقى منهم رجل.. نظر إليه بخوف.. حمل يوسيفيوس سيفه وتقدم إليه قائلا: أتريد الموت مثلهم وتختار أنت لا إلهك أن تقتل جسدك؟ أم تريديني أن أقتلك؟

تراجع الغلام إلى الخلف.. صرخ يوسيفيوس: هيا هيا.. انهض وارحل من هنا قبل أن أقدم عليها.. هيا اهرب لأجل حياتك....

كان آخرهم يسير ببطء.. كان أمامه أطفال ونساء ومن أمامهم الرجال.. تحامل إفرايم على نفسه حتى يكمل الطريق.. لا تريد أن تكشف الآن.. ليس في النهاية، عاشت حياتها كإفرايم وستنهيها كذلك.. تحسست دينة أسفل عنقها.. كانت إصابة عنقها تؤلمها.. وكان الطريق لايزال أمامهم حتى أعلى جبل الزيتون...

كانت ملابس الحناجر ثقيلة على جسدها، لكنها اعتادت على تحملها، منذ وقت طويل لم تعد تشعر بمثل هذا الألم.. ألأنها تقترب من الموت الآن؟ فكرت ماذا هل يسامحني السيد على كذبي عليهم كل هذا الوقت؟ ولكن لم يكن هناك من حل آخر.. عندما ولدت دينة كانت آخر إخوتها الخمسة بعد أن مات الباقون أطفالا، كانت الفتاة الوحيدة.. كانت تعمل في البيت،

تطحن الرحى للقمح وتعمل الخبز والطعام مع أمها حتى يعود إخوتها وأبوها من الرعي.. تحسنت بهم الحال فكان أبوها يرحل بين المدن ليتاجر هناك.. وعندما قام الشغب الأول لم يرد أن يكون جزءًا منه فحمل أولاده ورحل نحو الجليل.. حيث عاشت دينة وهي صغيرة تتطلع إلى العجب فيما تراه من الغرباء...

obeikan.com

١٩

رأته في المساء وهو يهرب.. أخوها الأكبر.. سمعت صوته وهو يرحل في الظلام.. لم تستطع أن تتحدث، كانت تخاف من العقاب.. في الصباح سمعتهم يتحدثون عن رحيله.. كان أبوها ساخطًا عليه، قال: لقد رحل مع الخناجر صار مثلهم لصًا.. حاول أخوها الثاني أن يهدئ والده قائلا: ليسوا جميعهم لصوصًا، إنهم يريدون فقط خروج الغرباء.. كل الغرباء وأي شخص ليس منا.. قاطعه أبوه: هي هكذا كانت دائمًا، ولقد غضب علينا السيد وانتهى الأمر.. نحن الآن نطلب رحمته لا أن نقتلهم فيأتي إلينا الروم.. هل نستطيع نحن أن نقف أمام جيش الروم؟ أم تريدون أن نموت جميعا؟ صمت إخوتها لغضب والدهم.. كانت تشعر بالحزن لأنه لن يحضر زفافها القريب من ابن عمومتهم، ستزف إليه وترحل معه إلى الطرف الآخر من المدينة.. لم يكن مسموحًا لها برؤية الغرباء، لكنها كانت تراهم من بعيد وهي تملأ جرات المياه لتعود بها إلى البيت...

استدارت فاصطدمت به، تراجعت للخلف مذعورة، كان ممنوعًا عليها رؤية أو التحدث مع غرباء.. رأت قطعان غنمه من حوله.. حملت جرتها وابتعدت عنه أقصى ما استطاعت.. كانت تعلم أنه يتطلع إليها من خلفها....

كانت مذعورة من رؤية أحد لها، مضت الليالي وعادت للخروج بجرتها، تنفست عندما لم ترَ أحدًا هناك.. ملأتها وعادت لترحل.. فوجدته هناك يجلس.. تحت ظل شجرة يلعب بمزمار صغير وهو يراقب قطعان غنمه وهي ترعى...

ابتسم لها من جديد، كان غريبًا ولا يحق لها، كانت تعلم أنها قريبًا لن تستطيع أن تراه، هربت من وجهه، حل موعد جز صوف القطعان، اجتمع الرعاة معا.. وحينما انتهوا أقاموا احتفالا لبضعة أيام.. حملت دينة الخمر بعد أن لبست برقعها على وجهها ومن خلفها بقية النساء.. لمحته من بعيد يجلس بينهم.. كيف وهو غريب؟ والغريب مكروه ومحظور....

كانت تعلم أنها ستراه مرة أخرى عند بئر المياه.. هل كان عليها أن ترحل معه؟ أم تفعل ما فعلت وتعود لبيتها حتى تتجهز للزواج من قريبها؟ كانت تعلم إن هربت معه ستلاحق من بيت أبيها حتى الموت.. أخواها من الغيورين، إنهم يقاتلون فقط حتى لا يبقى غريب من حولهم وتصبح جميع الأراضي أمامهم خالية من سواهم.. وهي تتحداهم وتهرب مع غريب.. جزء منها أراد فعل ذلك.. وأن توافقه على طلبه وترحل.. لكنها خافت وتراجعت.. تمتمت وسط إنهاكها: ربما لو كنت ذهبتِ معه لما اضطررت لأن تكوني إفرايم ولم تقتلي أحدًا أو تضطري للموت انتحارًا مع هؤلاء من فوق الجبل.. ربما كنتِ الآن بطبرية أو السامرة، ومن يهتم؟ كنت تزوجين أبناءك الآن ولديك بيت.. ولكنك اخترت.. كانت تهذي ولم يلاحظها أحد.. كانت النساء وأطفالهن ينوحون أمامها وخلف أزواجهن وآبائهن من

حملة الخنجر.. عادت لتتذكر، بعد أن انتهى الاحتفال استعد الجميع لزواجها حتى بدأت أحداث المدينة.. تلك المرة خرج بقية إخوتها أمام أبيهم، فقد كان شباب كثير من المدينة يخرجون لينضموا للخناجر في قتالهم الأغراب.. حاول الأب أن يردعهم لكنه لم يفلح، قالوا له إنها وصية وعليهم تنفيذ كلمات السيد وأصحاب الخناجر الغيورون فقط من يفعلون هذا الآن والكهنة الأمناء هم فقط من يقفون بجانبهم، وما فائدة الزرع والتجارة إن كانت الحياة ستظل مع الغريب والرومي؟

كانت تنتظر بخوف ما سيحدث، فقد ذهب خطيبها وتركها ببيت أبيها مع إخوتها.. كانت الأخبار بقدوم فيلق مرسل من الحاكم على الطريق تملأ كل البيوت.. خافت عليه.. على ذلك الغريب، حاولت أن تلوم نفسها وتعترض.. أن تتأسف لسيدها على فعلتها في قلبها.. لكنها لم تكن صادقة، وحقًا تمنت أن يكون بخير ويعود من جديد لقطعانه.. تعلم كم أحب المزمار وترديد أغانيه عليها.. لقد استمعت إليها معه وأحبتها.. لا تستطيع أن تخبر أحدًا بذلك.. لكنها لم تستطع أن تجلب النجاسة على عائلتها إذا هي اقترنت بغريب.. لم ترد له الموت.. انتظرت وهي تستمع لصوت ألحانه تأتيها...

هل لا يزال حيا.. ولكنها اطمأنت، فهو لن يكون يومًا من الخناجر ولن يقاتل ضد الروم.. هذا ما علمته.. ربما عاد لمدينته.. انتظرت وانتظرت ولكن.. لم يعد أحد. لا غريب ولا إخوة.. قتل كل من خرج أمام فيلق الحاكم القادم لإخماد تمردهم.

سقط والدها من الحزن وخرجت هي لرعي قطعان أبيها.. سمعت أن أهل خطيبها سيرسلون إليها لأجل أخيه. كانت تسمع النسوة ينعتنها بالشؤم.. كان عليها أن تستعد للرحيل...

كانت حزينة ولكن عليها الرحيل، هكذا اقتضت العادة ولن تجلب لاسم أبيها وإخوتها الراحلين الحزي. كان يصل لمسامع الجميع في المدينة أن الجبال امتلأت بقطاع الطرق يسلبون القوافل ولا تمضي قافلة من دون التضحية ببعضها في سبيل استكمال بقية السبيل..

وجدتهم هناك في غرفة والدها.. عباءته وخنجره.. تلفحت بها.. ارتدتها حتى يحمياها في الطريق.. كانت تعلم أنه حُرم عليها ولكنها تحملت ذلك في سبيل ألا تقع في أيدي لصوص الطرق أو الغرباء.. كان عليها أن تصل لبيت عريسها وتصبح زوجة وأمًا لتصبح امرأة كاملة مثلما اقتدت التقاليد في قبيلتها..

صرخت النسوة حينما رأين القادمين من على جانبي الطريق.. رأت دينة القادمين فانزلقت من على الجواد.. وأخرجت خنجرها وغرسته في صدر أول قاطع طريق قابلته.. لم تنتظر أكثر وتراجعت ناحية الخلف حيث الرجال في نهاية القافلة.. كان لديها الوقت قبل أن ينتبه إليها أحد.

أوتها المرأة الكنعانية لديها أيامًا طويلة.. كانت تلمحها تتفرس في وجهها لحظات ثم تعاود عملها في الطحن من جديد، لم تسألها من أين أتت؟ فقد علمت أنها من المدينة، تمتمت دينة بصوت ضعيف: لقد هربت من قطاع الطرق.. كانت المرأة أرملة تعيش مع وحيدها الصغير، يخرج كل صباح

ليرعى غنماته ويعود لأمه في المساء.. مع الوقت ساعدتها دينة في أعمال البيت وطحن القمح.. وعندما مرض الصغير كان على المرأة أن تصطحب الصغير إلى طبيب في بيرية.. فقامت هي برعي الغنمات.. أحيانا كان صوت أبيها يأتيها في ظلام الليل غاضبًا.. تعيشين مع غرباء يادينة؟

تستيقظ فزعة، تقول: سامحني يا أبي.. سامحوني.. وفي ليلة أخرى تركض خلفه في الظلام تستحلفه أن يستدير ويتطلع إليها لتخبره أنها اضطرت إلى الهروب من اللصوص، لم تكن ترضى أن تصبح عبدة لدى غريب.. تحاول أن تخبره أن المرأة حملتها إلى بيتها وهي مريضة وتركتها لديها وأطعمتها أيضًا، وأنها تعمل لديها الآن.. أليس هذا أفضل من اللصوص.. لكنه أبدًا لا يستدير ويظل غاضبًا، تحاول جاهدة كل ليلة أن تستعطفه ولكنه يأبى...

لم تستطع المرأة أن تعود، كان قطع الطريق منتشرًا بين الجبال والمدينة محاصرة من قطاعي الطرق في داخلها وخارجها.. استمر والدها يأتيها في المساء.. وفي ليلة رأت أمها تبكي.. سألتها: لم تبكين أنت أيضًا يا أمي؟

قالت: ألا تعلمين أنني هنا تعيسة بسببك؟

تراجعت: بسببي أنا يا أمي؟

قالت: نعم.. لقد هلكتني وسببتِ لنفسك العقاب.. غرباء.. لن تصبحي أما ولن يكون لك نسل أبدًا..

تراجعت: ولكن لماذا؟

أجابت: هذا عقابك.. نعم عقابك وعذابي، لقد سببت لنا العار.. لن تصبحي أما.. ولن يرثك نسل.. كان نسلنا يتمنى أن يخرج من وسطه من ينقذنا.. وأنت اخترت أن تقطعي عنا هذا النسل.. ألا تعلمين أننا نتألم هنا بسببك؟

علمت أن قطّاع طرق يوحنان قادمون إلى المدينة التي هربت إليها.. كانت أخبار ما يفعلونه بالمدن المحيطة والتي يغيرون عليها تصل لمسامع كل بيت فيقشعر بدنها.. لكنها لم تكن تشعر بالخوف مثل بقية النساء.. بل بشيء مختلف.. كانت بداخلها نيران متقدة، فها هو ذلك الرجل الذي تسبب في مقتل أبيها وإخوتها ودمر بيتها وبسببه لن تصبح أما أو تنجب نسلا لزوج أبدًا.

شدت الحزام حول وسطها وربطت خنجرها جيدا.. استعدت لهم وانتظرت.. سمعت صوت الصراخ قادمًا من بعيد. ارتدت عباءتها.. حلقت شعر رأسها وتركت لحيتها تنمو.. وقفت وراء باب بيتها تنتظر.. تنتظر القادمين.

تقدمت الخطوات منها أكثر.. دلف من الباب.. نظر لها.. تمعن في وجهها، لا يدري هل امرأة أم رجل! لم تمهله، أخرجت خنجرها وضربته في عنقه.. مثلما تعلمت منذ زمن أن تفعل مع المريض من قطيعها قبل أن يموت حتى لا يضيع هباء وسط القطيع.. اعتبرته مريضًا وقطعته لتتخلص منه.. رأت آخر ينظر إليها.. كان خنجرها مرتفعًا وعينها تنتظره أن يقترب لتنفذ ما فعلته في السابق بضربة واحدة على العنق.. بدقة أتقنتها...

خرجت من البيت.. ركضت نحو الطرقات.. كانت تنتظر أن يقابلها آخر وآخر.. لا يزال ثأر إخوتها يلح عليها ولم يبقَ رجل من بيت أبيها ليأخذ بذلك الثأر...

كانت ترى نيرانًا قادمة من خلف أسوار المدينة من بعيد تتجه ناحيتها.. انخفضت.. كتمت صرختها، كانت تسمع صوت رجال يلقون أحجارًا من بعيد على من تسلقوا الأسوار العالية من بعيد.. كانت قد سمعت عن شمعون الذي يحاصر المدينة بخارجها ولكن إن لم يكن هناك أمان خارجها فلا معنى لتركها.. علمت أن عليها أن تقاتل.. لم تشعر بالخوف ولم تتراجع، ضربته بقوة وبيد واحدة.. امتلكت تلك القدرة ولكنها عملت على إخفائها.. لم يكن مسموحًا لها.. كانت ستغضب أباها إذا علم أنها قاتلت بخنجر، فلقد كان القتال للرجال ولكنها قاتلت.. لم تتعلمه من قبل ولكنها اكتشفت قدرتها تلك عندما تعرضت لخطر السبي والعبودية.. لم تكن تتصور نفسها عبدة.. لن تقبل وهي ابنة بيت إفرايم أن تصير عبدة لدى غريب أو أممي.. لا.. كان الموت أفضل سبيلا لها وإن كانت ستموت فعليها أن تقتل عدوها أولا...

٢٠

رأوها.. صرخوا.. أحد من المدينة، حاولت أن تركض لكنهم حاصروها وأمسكوا بها، قالوا احملوا هذا الرجل نحو القائد ليرى ماذا يفعل به؟ مضت في خطواتها بجوارهم بثبات خوفًا من أن يفتضح أمرها.. صعدوا بها نحو الجبال.. تذكرت الطرقات التي تعلمت سلوكها وتعاملت مع وعورتها لأجل قطعانها الصغيرة.. تعاملت مثل الراعي وهو يسير ومن أمامه قطعانه..

كان جالسًا في المنتصف ومعه رجاله.. قصير وسمين.. قالت لا يفرق كثيرا عن يوحنان، كلاهما قاطع طريق وكلاهما قتل إخوتها.. سالها شمعون: من أنت؟

صمتت لا تعرف بماذا تجيبه، خافت أن تفتضح من صوتها.. تذكرت الآن ما كانت تسمع من النسوة وهي صغيرة، وجه جميل وصوت قبيح.. كادت تبتسم، لولا هذا الصوت القبيح لما استطاعت أن تجد طريقا لها الآن..

قالت: من المدينة ولكني هربت من وجه يوحنان عندما قتل رجاله أبي وإخوتي.. ولكني يا سيدي عدت لأكون من رجالك، عندما سمعت باسمك علمت أن سيدنا يعضدك وسوف يجعلك تقضي على ذلك اللص سافك الدماء بقدس الأقداس..

أعجب شمعون من حسن كلماته، نظر رجال حاشيته لبعضهم البعض.. فتى خبيث لا يعلمون من أين أتى.. يحاول سرقة قلب سيدهم منهم.. قاطعه أحد الحاشية: ابن من أنت أيها الفتى؟ أنا من المدينة أيضًا...

صمتت ثم أجابت ببطء: أبي راعي غنم فقير يتجول وسط الأودية وإخوتي يرعون القطعان، وفي يوم أتى رجال يوحنان وسلبوا أبي وإخوتي القطعان ولم يعودوا إلى ذلك اليوم.. وكنت أنا أصغر إخوتي، وأبي كان يدللني، لذا لم أكن أخرج معهم للرعي، بل أحببت المزمار واللهو.. وبعد ما حدث علمت أن السيد يعاقبي لجزائي وخطئي في حقه، والآن لا أطمع سوى في أخذ ثأر إخوتي حتى وإن مت سأكون راضيًا.. تقدمت في خفة وسجدت لدى قدمي شمعون قائلة: أرجوك يا سيدي شمعون تعطّف على عبدك المسكين ودعه يكون خادمًا لرجالك حتى أرى سيدي بعيني وهو ينتقم من ذلك اللص يوحنان....

لاحظ جنده تقدمه السريع وسط أقرانه المنضمين الجدد إلى سيدهم فشعروا بالخوف منه، كان يبدو ملفتًا للنظر كلما حدق بوجه أحد لم يستطع أن يدير عنه عينيه، خافوا أن يحدث فتنة وسطهم فتقربوا لسيدهم قائلين ها هو ذا الفتى الجديد قد تقدم في القتال على سائر رجالك ربما بالغد يصير مقربًا من قلوبهم أيضًا، فهيا يا سيدي قم بإرساله إلى داخل قلب المدينة حيث يوحنان، فلو قتله استطاع أن يظفر بكونه رجلك الثاني، وإذا لم يفلح فهو يستحق الموت لأنه لم يكن مخلصًا لك ولم ينفذ قولك...

كانت تعلم أن تلك كلماتهم، لكنها رحبت بها، ستدخل المدينة وتقترب خطوة أخرى من القاتل.. كانت تعلم أنها ربما لن تخرج مرة أخرى منها وسوف تموت بداخلها إن لم يكن بيد أحد رجال يوحنان فسيكون على أيدي رجال شمعون أو حناني الذي قدم للثار هو أيضًا...

عادت النيران لتخرج من فوق الحصن العالي لأنطوليا الذي تحصن به حناني ورجاله فيما ألقى رجال يوحنان بأحجارهم من الطرف الآخر، وأهالي المدينة الفقراء الذين لم يستطيعوا الخروج وقعوا في المنتصف حيارى ما بين الموت حرقا على أيدي رجال يوحنان أو أن يصيروا عبيدًا لدى شمعون وكلاهما صعب.. أكثرهم فضّل الموت داخل بيته إذ لم يكن أمامه حل آخر.. حتى ضجر الناس وكرهوا العيش وتوقفوا عن أمور الزفاف والزواج رأفة بأطفال سيجدون الموت من كل اتجاه...

اقتربت من البوابة، كانت تنظر قذائف النار من فوق رأسها بينما الباب ينفتح وهي تمضى بداخله سريعًا.. سقطت على وجهها حتى خفت القذائف وعاد الهدوء لبعض الوقت..

تطلعت حيث الأرض التي ولدت بها وعاشت فيها وهي تحترق.. تحترق من كل مكان، تلك الحارة حارة الفقراء كانت مشتعلة.. من تبقى كان يقف خارجًا ويبكي وهو ينظر للرماد يتساقط من بقايا البيوت.. انتشرت الأكواخ على أطراف المدينة لتأوي من فقدوا بيوتهم ولم يعودوا يأمنون بناء بيوت جديدة ومن لم يعد يتحصل على الخبز، ومنهم من تمنى الرحيل.. حلم به ولم يستطع.

أسرعت ناحية الأطراف تبحث لها عن كوخ.. وصلها صوت الناي.. إنها تعرفه.. اقتربت تتطلع فيه، كان يضع عصابة على عينه اليمنى وينشد ترنيمته الحزينة.. وقفت أمامه.. تطلع فيها.. خرج صوتها وفاجأها: ماذا تفعل هنا أيها الغريب؟

قطع مزماره وتطلع إليها بنصف عين يسرى: من غريب؟!!

قالت بعناد: ماذا تفعل هنا أيها الغريب؟

لم يتطلع تلك المرة قال: من الغريب؟ من الغريب؟ رفع مزماره وأكمل أنشودته الحزينة، رأت دموع عينه اليسرى تسقط.. كادت تهوي بقدميها لكنها تحاملت على نفسها لتبتعد من أمامه...

سقطت على بعد خطوات جوار كوخ آخر خالٍ ربما مات أصحابه جوعًا، كانت تسمع لعزفه المزمار وتبكي.. تبكي البيت والإخوة.. تبكي المدينة التي ترحل الآن من أمامها.....

فيما من أمامها جلس رجل على صخرة وكأنه لا يبالي بصوت بكاء الأطفال القادم من بعيد.. يمسك رقعة ويكتب.. لا تدري ماذا يدوّن الآن ولمن؟ نهضت واقتربت منه.. سألته: ماذا تفعل يا رجل؟ المدينة تموت أمامك...

لم يرفع رأسه عن الرقعة.. كانت تجهل الأحرف، لم يتميز منها شيئا.. رد: لقد ماتت من قبل منذ زمن لم يكن لديهم حينها رقعة وحبرًا.. أما الآن فهناك أحبار ورقع.. وغدًا سيصير لدينا كلمات حينها ربما لا ترحل...

زجرته: رجل مجنون.. مكانك هناك تقاتل مع الكهنة.. مع حناني، هم الأحق بالقتال من أجل تلك المدنية.....

رفع عينيه وتطلع بوجهها: قتلوها من قبل ويقتلونها اليوم، لمَ تريد مني أن أغمس يدي بدمائها؟ ارحل عن وجهي هيا، أرسطوس الكاتب ليس بقاتل.. إنه ناقل أحرف وكلمات.. وغدًا عندما يموت.. ربما يجدون كلماتي مدفونة هنا في مكانٍ ما ويعيدون قراءتها من جديد.. ربما ينقذون بها من سيبقى حيًا وينجو من رائحة الموت.....

تراجعت إلى الخلف وتمتمت: جُن.. هذا الرجل جن يريد أن يقاتل بكلمات.. ظلت تتراجع صرخت: لا.. لالا أنا لديّ خنجر أتسمع؟ لا يزال لدي خنجر باقٍ هنا وسأقاتل به.. وسأقتلهم معي وأنا أموت.. سنرحل جميعا معًا ولن أبقي أحدًا منهم أتفهم؟ تعثرت في حصى الأرض سقطت على وجهها.. تأوهت.. سمعت صوتًا يئن من الألم، اعتقدت أنه صوت جسدها.. عادت لتتنفس تنهت.. ليست هي.. رفعت رأسها لمصدر الصوت.. حاولت أن تزحف.. رفعت رأسها قليلا.. شاهدته، العجوز يصرخ: أرجوك لا.. لا تفعل، خذ روحي أولا قبل أن تأخذ روح أولادي الثلاثة أرجوك..

سمعت صوت الرجل الآخر، لم تتبين ملامحه من بعيد: لا.. لقد أسأت لي كثيرًا واحتملتك لأجل يدك التي تقدم تقدماتنا.. ولكن الآن لا.. سيرحلون قبلك حتى تتعلم درسك الأخير.. قلت لكم قفوا معي وستنعم المدينة بالراحة.. آه.. أعطاك كهنتك السلاح والمال والتقدمة.. وعليهم الأهالي..

أرايت ماذا حدث أميتاي؟ هل رأيت بعينك من يموت الآن؟ إنهم أبناؤك.. أشار بيده لرجله على اليمين، تقدم رفع خنجره.. رأته ينحر رقاب الثلاثة.. سقط الشيخ على وجهه، توقف صوت استعطافه.. نظر لرؤسهم وبكى.. رفع الرجل يده ثانيةً فتقدم ذلك الرجل الثاني لينحر رقبته جوار أبنائه....

سمعت صوت النواح: ياليت صمتنا على الروم.. كانت امرأة تجلس وتراقب بالقرب منها وتنوح.. ليت ما كان هناك غرباء.. ليت ما كان هناك أقرباء.. لم تطلع زرعة ولم ترتوِ بماء.. ذبح حبيبي أمامي ورحل.. ترك زهرته تنوح ورحل.. ليت القمر ما غرب.. ليت الشمس ما سطعت.. ليت المطر ما حلّ.. ليت عمري لم يرَ النور.....

بينما كان هناك بالجانب الآخر كهل نكّس لحيته نحو الأرض، كان يسمع حزن المرأة، ويحدث نفسه: ماذا فعلت يا شماي؟ ماذا فعلت؟ ليتك ما خرجت.. ليتك ما تركت المدينة التي تركت أنت وهي دون أن تراقب.. لم تستمع إليها واستمعت إليهم.. طلبوا أن يظلوا أمام الروم قلت نعم.. قالوا ما عدنا نستطيع على ذلك الخارج، اخرج له خارج المدينة وأدخله ليقف أمام يوحنان فيقتلان بعضهما البعض ونتخلص منهما ولكن ما حدث أن الثلاثة تخلصوا من المدينة.. كان هناك سور سقط والثاني سوف يسقط وقريبًا ستسقط كل الأسوار ولن يبقى شيء.. لن يبقى شيء....

أنت أدخلتهم إلى هنا هؤلاء وهؤلاء.. الغريب واللص.. أنت مثلهم تستحق الموت.. أحضرت من غدر بنا وبالعهد وسفك المزيد من الدماء.. وأنا

جلست أراقبهم يهربون.. كهنة.. وكنت أهرب معهم.. نعم كنت أهرب معهم.. ولكن آه.. رأيتها تشتعل.. تشتعل من كل مكان وليس ثمة ما يطفئها.. لقد رحل كل شيء ولم يبق سوى السور وها هو يسقط.. ليتني سمعت كلام الغلام ربما هو أحكم من الشيوخ.. نعم أحكم منك أنت يا شيخ فهو حاول منع القتل ولكنك طالبت بالمزيد منه.. يطاردك وجه الصبي الغريب الذي قتلت على الطريق.. لا تدري من أي مدينة من المدن حولك هو.. ولكنه قال إنه وحيد.. لديه شيخ مثلك الآن هالك بسببك.. ضحيت بالابن البكر حتى لا يحدث الموت ثم عدت أنت وطالبت به بيديك...

جلس شابان جوار بعضهما، كانا منهكين يحلمان ببعض الماء والخبز الذي لم يعد متوفرًا.. قال الأول في إنهاك: لو لم يقم ذلك الخائن ببيعنا.. قاطعه الآخر بسخرية: ماذا؟ ماذا كان سوف يحدث؟

رد الآخر بغضب: كنا سنقاتل على الأقل.. ثم.. ثم

قاطعه: ثم نموت أليس كذلك؟

رد: أليس أفضل لنا الموت من العيش هذا؟ كيف سنعيش؟ كيف سننظر لوجه من تبقى من ناسنا بعد أن خذلناهم مع ذلك المحتال الذي سلم نفسه للحاكم؟ ويالوقاحته.. أعلمت ماذا قال؟ قال له لينجو إنه سيصبح إمبراطورًا.. وسمعت أن إمبراطورهم قد قُتِل وسوف يرحل ليأخذ منصبه.. يا سيدي.. لا أصدق ما يحدث ذلك المحتال نجا.. سلّم من تبقى منا ونفسه لينجو.. ومن ماتوا هو لم يهتم...

وما شأننا نحن بمن ماتوا؟

ماذا قلت؟ هل جننت؟ كثرة الجوع فعلت بك هذا؟

نعم.. نعم الجوع.. مللت الجوع.. كنا فلاحين، ما شأننا نحن والقتال؟ منذ متى وهم هنا؟ ثم ماذا بك؟ هل تعتقد أننا عندما حاربنا معًا انتهى كل شيء؟

لا.. كم مرة سمعتها وصمتّ؟ غريب.. غريب.. ينعتوننا من الغرباء.. غرباء عنهم.. نحن وهم.. لو انتهى القتال غدًا كانوا سيقتلوننا قبل أن نعود لمدينتنا، قبل أن نعود لحياتنا السابقة.. ليتنا مكثنا كما كنا نبيع السمك ونجلس على قواربنا على شط البحر.. لقد اشتقت للبحر كثيرًا لمياهه.. يا إلهي ارحمني...

رد الآخر بغضب: كف عن النواح الآن، ماذا تظننا؟ نساء؟ نساء لنبكي؟ نحن لا نبكي.. كنا نقاتل معًا لأننا مللنا الروم أيضًا ومللنا اللصوص، ألم يأتوا إلى مدينتنا؟ أنسيت أننا اضطررنا لفعل ذلك بعد أن هاجمونا وقتلوا من قتلوا وسرقوا؟ والفتيات.. أنسيت ما حدث لبيتك؟

تكهرب وجه الآخر فأبعد نظره بعيدًا عنه.. فأكمل: يا أخي لم أقصد أن أزعجك، ولكن إنها حرب وقد خسرناها ولا داعي للصراخ.. اصمت.. اصمت ودعنا الآن نموت في هدوء ولتحمد الآلهة أننا لم نكن منهم وفي المدينة الآن.. حتى أقدس أقداسهم الذي لا تدخله قدم غريب مثلما يقولون.. أصبح معبرًا للدماء ومن قتلوا بداخله أكثر ممن قتلوا بخارجه في الساحة.. حتى كهنتهم لا تعلم من قتل الآخر ومن تآمر مع اللص ضد

الآخرين.. أنسيت أن واحدًا منهم هو من أدخل اللص شمعون داخل المدينة ليقتل يوحنان؟ أنسيت أنهم أرادوا التخلص من قائدهم حنانى ففعلوا ذلك حتى يستطيعوا قتله دون ملامة من أحد ويجلس أحدهم من بعده بعد أن يقتل اللصان بعضهما؟ ولكن انظر عوقبوا من السماء وها هم الآن يقتلون على يد الثلاثة.. من الأفضل الآن؟

ليتنا بقينا جانب الشاطئ.. ليتنا بقينا جانب الشاطئ..

همد صوت الخراب.. انطفأت النيران.. حملت دينة نفسها على المضي قدمًا رغم شعورها بالخوف.. كان على أحدهم أن ينقذ تلك المدينة من اللصوص وإن كان هناك موت فلابد أن يكون بعد الثأر..

ولكنها علمت أن طريقها للثأر لابد أن يبدأ من عند رجال الكهنة.. حاولت أن تتماسك وتنسى- خوفها القديم منهم.. لم يكن عليها رفع وجهها، إذا اكتشفوا أنها امرأة سيقتلونها.. ولكن لا.. عليها أن تثبت لهم أنها رجل.. رجل أتى للقتال في صفوفهم.. اقترب من حصونهم فصاح به أحد الحناجر وهمّ أن يرفعه فبادرت بصوت خشن: اهدأ يا أخى أنا أتيت معكم.. أنا عدت للمدينة بعد أن هربت منها.. أردت أن أقاتل معكم أو أن أموت معكم.. تراجع صاحب الحنجر وتطلع فيه قبل أن يشير له أن يتقدم أمامه.. كانت تعلم أنها ستدخل أمام الكهنة الآن.. كانت تتقدم في الهيكل وهي ترتجف، لم تخطُ أكثر من بهو النساء في المرات القليلة التي قدمت فيها للتقدمة، وها هي الآن ستدخل حتى بهو الكهنة حيث يقدمون الصلوات فيها وكانت على بعد خطوات شعرت بها قليلة من قدس الأقداس....

٢١

تلعثمت.. نظرت لعباءات الكهنة تأملتها وصمتت.. من أين لهم تلك العباءات وسط الموت.. وتلك الصدرية سمعت أنها للرئيس فقط.. أهو ذلك الرجل؟ هل يتأنق لأجل الموت؟

أشار لها.. تكلمت.. تعجبت من نفسها.. لم تتلعثم أمامهم.. لم تعد تشعر بالخوف أو الرهبة.. لم يعد هناك شيء من ذلك.. لم تعد تشعر أنها أدنى منها.. قالت لماذا؟ لأنى امرأة؟ ولكن فيما أخطأت؟ ساعدت أمي وأبي.. ساعدت المرأة الغريبة.. خنجري لا يقل عن خنجر الرجل.. لقد قتلت روميًا ولصًا من قبل ولم أرتجف أو أتراجع ولكني اعتقدت أنني سأكشف أمامهم.. سيعرفونني ويعلمون أني امرأة.. سيأمرون بهلاكي مثلما فعلوا مع تلك المرأة التي اتهموها مع آخر فحفروا لأجلها حفرة وتجمعت المدينة لتلقي حجارتها عليهم حتى الموت...

قالت بخشونة: جئت أقاتل معكم.. أو أموت معكم. لقد هربت من قبل من هنا ولكني عدت عندما علمت أن مدينتي تسقط ويدافع عنها غرباء...

رد الكاهن: بوركت.. السيد أرسلك إلينا.. نحن بحاجة إلى الرجال، قريبا سينتهي اللصوص وعلينا أن نستعد للروم.. ذلك الخائن سلمنا إليهم ولكننا أبدًا لن نترك له المدينة.. سنطهرها مثلما سنفعل مع الغرباء الذين يملئونها....

علمت أن عليها أن تقتل الآن.. لابد أن يحيا أحد في النهاية، لا يمكن أن يموت الكل وترحل المدينة.. لطالما كان هناك جوع وجفاف.. ورحيل وتنقل.. ولكن في النهاية كانت تظل هناك عندما يتم العودة إليها.. علمت من قتلها من قبل.. علمتهم ورأتهم يضحكون.. كانت تعلم أن الخارج يموت.. يضحكون عندما يتذكرون الحال الذي يتمنون هم.. كانت حارسهم.. تسمعهم.. تنام وتصحو تسمع أحاديثهم.. علمت بمن ستبدأ.. بذلك القائد..

القائد الذي تركها للصوص.. علمت أن هناك من أدخل اللص الآخر بداخلها.. قيل إنه هناك بمكان ما.. كان هو هدفها الثاني.. كان عليه أيضًا أن يرحل معهم ومع اللصوص.. لابد للمدينة أن تعيش.. لا يمكن أن تموت.. أن لا يكون هناك أناس يستيقظون مثلما كانت تفعل هناك فتشم رائحة الكروم من البساتين.. أن لا تسمع صوت المزمار الذي أحبته.. شعرت بالحزن.. لقد رفضته ثانيا.. كان فرصتها الثانية وقد رفضتها.. لِمَ لم تقل له نعم؟ هيا بنا فلنرحل.. وسنعود ..أنا وأنت فنحن الاثنين من هنا ولابد أن نعود ونحيا.. ويكون لدينا بيت.. بيت ليس من القش.. وصبية.. صبية كثر وفتيات مثلها.. يركضون هنا وهناك.. ويكون هناك قطيع.. نعم قطيع تخرج لترعاه معه.. ويكون هناك أحفاد.. أحفاد كثر.. وتسمع صوت أمها سعيدة.. لقد أتمّت واجباتها وأصبحت زوجة وأمًا ولها نسل لبيت أبيها وأبيه.. سوف يحيون.. لكنها قالت لا.. رفضت كل هذا.. خافت من

صوت والدها يعود للصراخ عليها في المساء.. أن يفقد الأمل فيها وهي من تبقت له على قيد الحياة..

لا.. لا تستطيع أن تتحمل صراخه وألمه بسببها.. كانت هناك فرصة.. وأي فرصة أن تثبت له أنها ليست شيئًا.. ليست شيئًا أو مجرد امرأة .. بل هي تقاتل وهي من أخذت ثأر بيت أبيها أيضًا.. ستفعل.. ستفعل.. عادت أنفاسها لتهدأ.. قالت لنفسها: لقد اقتربتِ.. كان الظلام.. رفعت الخنجر.. غرسته في ذلك الصدر الذي تغطى بالصدريات من قبل.. تأوه في ألم.. كتمت أنفاسه.. رحل...

كان صوت الصراخ.. عاد القتال من خارج الأسوار.. بل سقط السور الثاني.. مهلة الرومان انتهت وعاد الحصار.. لن تتحمل المدينة.. قالت في نفسها هيا اخرجوا.. اخرجوا لنموت عوضًا عن الناس.. إنه الآن الوقت المناسب.. لكنها سمعت من حولها يصرخون بالقتال.. أي قتال والمدينة مليئة بالنساء والأطفال يموتون جوعًا في الطريق.. حتى الجثث صارت تؤكل..

من أنت أيها المقاتل الشجاع؟

تلعثمت لحظات ثم أجابت: إفرايم.. وقد مات أهلي...

كان هناك آخر ممن يرتدون الصدريات والعمامات منهم.. أصبح القائد الجديد.. قال لها: أحسنت أيها المقاتل، كنا بحاجة إلى أن نتخلص من

الخونة وسطنا حتى يرضى عنا السيد فنعود لقتال الروم.. لقد اقتربوا من اقتحام الأسوار ونحن أمل المدينة الأخير.. أجابت ببطء: ولكن بعضًا منهم سلم نفسه للروم حتى يسلموا من الموت.

رد بغضب: خونة.. خونة وسنحضرهم إلى هنا ونسحقهم تحت أقدامنا.. لقد تركنا حياتنا من خلف ظهورنا لأجل أن نتخلص من الخونة ممن أحبوا الغرباء وتعاملوا معهم.. كانت تلك هي أولى خطوات غضب السماء.. والآن نعاني من العقاب بعد أن سلمنا ليد الروم حتى نتأدب، واليوم حان الوقت لنرفع عنا هذا العقاب.. وأنت معنا أيها المقاتل...

كان ذلك يوم العيد.. حاولت أن تقف.. تساقط من حولها من شدة الضعف ومحاولات القتال.. لم تظفر بالرأس التي دخلت المدينة لأجلها.. بعد أن فر قائدهم ومن معه لم يكن أمامهم سوى الانضمام ليوحنان.. كانت تسخر من نفسها لأنها اليوم تقف بجانبه وتقاتل.. لم يعد هناك سوى القليل جدًا من الماء تدخره.. تعلم أنها ستسقط في النهاية، أكثر ما كان يغضبها أنها لن تأخذ ثأرها من قاتل بيت أبيها.. عادت لتسقط على الأرض من جديد بعد أن عادت الهدنة التي قرر الحاكم الرومي إعطائهم إياها.. لن يرفع فيها الكبش على السور ولن يضطروا حينها للصعود من جديد وإحراقه..

عاد المزمار يخرج ألحانه من جديد، كان الضباب يحيط بها، حاولت النهوض وسقطت.. كررت محاولاتها حتى استطاعت النهوض.. تتبع

الصوت.. تعثرت في خطواتها لكنها سارت على درب الأنشودة.. شعرت بالسحر يمس قلبها.. أنشودة حزينة صافية تنسج أمامها ببطء..

رفعت بصرها نحوه.. أين وجهه؟ لِمَ اختفى؟ لا ترى منه سوى مزمار.. تكاد ترى الألحان وهي تخرج منها.. يزداد الشجن.. تبكي.. تقترب منه.. لا تلاحظ صوت بكائها الذي يرتفع أكثر وأكثر.. يغطي على صوت الشاب الكاهن الذي قال لا قتال بعد اليوم وألقى سلاحه.. يأتي صوته من بعيد: لماذا؟ لماذا تريدون الموت؟ قولوا لي مَن أخبركم أن الموت أفضل؟ ألا تخشون على تلك الأسوار أن تتحطم مرة وإلى الأبد؟ كان صوته يأتي من بعيد وكلما اقترب من المزمار وضح الصوت أكثر.. اختلطت الأفكار في رأسها.. هل هو من يقول تلك الكلمات؟

قالت لنفسها: ولم لا؟ ألم يقل من قبل أن لا غريب هنا؟ وعندما سألته أي وقاحة تلك التي يقول.. أدار وجهه عنها وأكمل طريقه وكأنها هي الطفلة التي لا تعي شيئا بعد.. قالت له: صحيح أنني امرأة ولم أصبح شيخة أو قاضية إلا أنني أفهم.. نعم أفهم أن هناك نحن ولابد أن تبنى المدينة وتظل بنا.. لا.. لا تقل لا غريب.. لا تقل لي نعيش ونرعى قطيعنا.. أي قطيع؟

لقد مات أبي وأهلي.. ماتوا لأنهم قاتلوا ولم يتبق غيري.. ولا تقل لي إن أبي سيشعر بالعار إذا ما أخذت بثأره امرأة.. لا.. أبي ليس مثلهم.. هو من طلب مني ذلك مرارًا وتكرارا.. كنت مثلك أحيا.. فكرت أن أتزوج منك

وأن نرحل بعيدا عن هنا.. لكنني لم أستطع.. لم أستطع.. كيف تهرب من تراب ولدت به وفرض عليك قدرك!!..

ربما إذا كنا من مكان آخر.. ربما كنا ننجب الأطفال الآن.. عاد صوت الكاهن من جديد: يا أهلي أخبروني ما الذي يشجعكم على الخراب ومواصلة طريق خراب الطرق المقدسة؟ ما الذي يجلبه عليكم هذا سوى الموت والاندثار؟ حسنا إن كنتم تريدون الموت فاتركوا لنا المدينة.. اخرجوا حيث الصحراء وقاتلوا ولا تتخفوا خلف المقدسات.. لا تسقطوا آخر صخرة بها.. أرجوكم استمعوا..

قالت: ما هذا الرجل سلم رجاله للعدو وسلم نفسه.. بخدعة كي يحيا ويبقى إلى الأبد.. لمَ يحب الحياة هكذا؟ أي حياة مع هذا الذل؟

يعود صوته: استمعوا للمرة الأخيرة ما تفعلونه لا طائل منه عودوا ...

ارتفع صوت المزمار من جديد.. سقطت تحت قدميه.. رفعت رأسها تريد أن تتلمس وجهه.. همست: منذ متى لم أرك؟ لقد اشتقت إليك حقا.. سامحني.. ربما جبنت ولم أرد أن أرحل معك.. أن نبتعد.. أيها الغريب ارفع بصرك وانظر لي.. أنا هنا ألا تراني؟.

جاءها صوته: من أين يأتي صوتك؟ هذا الصوت أعرفه كنت أسمعه من قبل ولكن لا أذكر لمن..

قالت: انظر لي بجانبك.. لقد عدت بجانبك.. افترقت عنك زمنا طويلا.. قلت إنك آخر ورفضتك.. ليتني صمت وقبلتك..

ابتسم: الآن علمتِ؟...

ابتسمت: ربما رائحة الموت توقظ الروح.. أتعلم؟ فهمت كيف يمكن أن يكون هناك روح.. تلك لم أعلمها من قبل.. لم يهتم أحد أن يعلمني من قبل...

قال: صه.. استمعي.. لا يزال يصرخ هناك بهم.

قالت: خائن ...

قال: ربما.. وربما أحب تلك المدينة أكثر من كلينا.. أحبها وأرادها أن تعيش ولو مات.. ولكننا سنموت ونقتلها معنا...

قالت: يكفي.. يكفي.. سنموت معًا وهذا يكفي.. هل تعلم إن كنا هناك سنضطر أيضًا للقتال.. أم سننعم براحة تكفي أن نعيش معًا؟...

ابتسم لها وأغمض عينيه ولم يجب... صمتت.. سمعت أصواتهم.. من يقودون القتال.. يدعون من تبقوا ناحية قمة الجبل.. نظرت للغريب وقالت: سأصطحبك معي تلك المرة ستأتي معي ونرحل من هناك معًا.. لازلت لا أعيش مع عدوي.....

تقدمهم الرجال ومن خلفهم النساء.. كانت تسير وتحمل الغريب.. كانوا نحو الألف.. اقتربوا من القمة.. وقفوا يتطلعون من حولهم.. حيث كانت هناك مدينة فيما مضى.. وقفت معه على الحافة.. شعرت بالراحة.. تلك لحظة الراحة.. تأكدت أنهما مربوطان معًا جيدا.. شاهدت الرجال يلقون بنسائهم وأطفالهم أولا حتى لا يشعروا بالخوف.. أغمضت عينها للمرة الأخيرة..

أمسكته.. وقفت على الحافة.. أفلتت قدميها.. فتحت عينيها.. شاهدت ضوء الشمس وهو يلح في السطوع من جديد.....

توكأت على العصى التي حملتها.. كان صوت السفينة يخبرها بموعد الرحيل.. كانت ثيودورا تتطلع في المدينة وهي تحترق.. تحترق من كل جوانبها.. لم يتبقَ حجر على آخر.. سقط الجميع معها.. تأوهت: قلت لك أن تعود.. قلت لك دعنا نحيا ولكنك لم تستمع.. آه منك.. جالت بعينيها وسط الدخان الذي تراه في الأفق.. علّه يظهر.. يخرج من وسط النيران.. هو يعلم أنها ستغادر الآن.. ستغادر ولن تعود.. حاولت من قبل ولم تستطع.. ولكنها الآن فقط علمت أن عليها أن تعود لمدينتها.. ضحكت وسط بكائها، سترى الإسكندرية قبل أن تموت.. لقد نسيت أمرها لأجله.. كانت تضحك من الفرحة.. وتبكي حزنا.. كانت تفعل الاثنين معًا...

تحركت السفينة.. من بعيد لمحته.. لمحت وجهه يحترق وسط النيران.. كان يبكي ولكن دموعه لا تكفي لتخمد الحريق.. كان يتلاشى من أمامها.. ذاب أمامها ولم يبقَ منه شيء بينما السفينة تقطع المياه حاملة معها من استطاعوا النجاة حيث طريقهم إلى الناحية الأخرى.. همست: ترى هل سيكتب لي رؤيتك تيبي؟ هل سأراك مرة وحيدة قبل أن أرحل؟ ابتسمت وهي تشم تلك الرائحة.. الرائحة التي أخبرتها عنها تيبي.. رائحة مدينتها...

ـ انتهت ـ

للتواصل مع الكاتبة

Marina Suriel

obeikan.com

obeikan.com

الإسكندرية ج . م . ع

(+٢) ٠١٠١٨٨٣١٣٦١

(+٢) ٠٣/ ٥٧٦٥٧٧٧

حسناء للنشر والتوزيع

opeikan.com